المكتبة الثقافية
٤٥٨

التعادلية
فى أدب توفيق الحكيم والأدب العربي والعالمي

تأليف
عماد الدين عيسى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

الاخراج الفنى : مراد نسيم

تقدمــة

((لن نــذكر الفلســفــة العربيــة بعد
اليوم ، الا وفى أذهاننا فكرة التعادلية التى
بسطها أديبنا الحكيم)) .

(د . زكى نجيب محمود)

اهـــداء

اليــك يا أم الدنيــا
يا بـــلادى
أهـــديك
نبض العقــل
ونــور فــؤادى

« عماد الدين عيسى »

الباب الأول

مدخل الى التعادلية

فى ادب الحكيم

● التعادلية معالم فكرية ●

مدخل الى التعادلية

يقول الحكيم : احب القارىء الذى يستكشفنى ..

وهو محق فى ذلك كل الحق .. فما كاد يسأله أحد القراء النجباء عنمذهبه فى الحياة والفن .. حتى أجاب توفيق الحكيم بكتاب فكرى متكامل .. يقدم رؤية شمولية حول « وضع الانسان فى الكون » و « وضع الانسان فى المجتمع » .. وهذا الكتاب قدعرف بعنوان « التعادلية » .. وفيه ضمن التفصيلات عن مذهبه فى الحياة والفن ..

وجدير بنا فى شىء من الايجاز ـ ان نتعـــرف على التعادلية فى جوهرها .. وليجيبنا الحكيم نفسه على هذا السؤال : ماهى التعادلية ؟

انه يقول :« لا ينبغى أن تؤخذ كلمة التعادل هنا بالمعنى اللغوى الذى يفيد « التساوى » ..

ولا بالمعنى الذى يعنى « الاعتدال » أو التوسط فى الأمور .

بل أن معنى « التعادل هنا — (أى فى نظرته الشمولية للحياة والفن) — هو التقابل » .

والقوة « المعادلة » هنا معناها القوة المقابلة و « المناهضة » .

فاذا لم يفهم معنى الكلمة على هذا الوضع ، فان التعادلية تفقد حقيقة معناها ومرماها »(١) .

واذا كان الحكيم قد عنى فى شرح ذهنى للتعادلية خاصة عندما قال :

« الواحد الصحيح = صفرا » .

فهذا فى عرف التعادلية حقيقة ويعلل ذلك بقوله : « الحياة الايجابية تبدأ من العدد « الثنين » . اذ بوجود شيئين توجد العلاقة بينهما : أى الحركة والحياة .

كل حركة يجب أن تقابلها وتعادلها « تناهضها » حركة .

كل قوة يجب أن تقابلها وتعادلها قوة .

الله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته ومع ذلك أوجد بارادته تعالى قوة أخرى مقابلة : هى قوة الشيطان ، كى تبدأ الحياة البشرية فى التلون والتحرك .

وخلق الله آدم واحدا صحيحا . فكان وجوده سلبيا . فصنع منه اثنين .. ووجد آدم وحواء وعندئذ اتخذ الوجود حركته الايجابية .

---

(١) « التعادلية » ص ١١٧ .

والشمس بمفردها قوة سلبية ، ولكنها انقسمت الى كواكب أخرى تتعادل وتتوازن في حركة مناهضة لتقاوم وتبقى ٠٠ فبدأت في الكون الحركة الايجابية ٠

قوة السلطان المطلق حركة سلبية ٠٠ ولابد من حركة مقابلة معادلة : هى قوة المحكوم ، لتبدأ فى المجتمع حياة ايجابية ٠٠ وهكذا ٠٠ وهكذا ٠٠

تلك هى التعادلية فى جوهرها ٠٠(٢) ٠

● فهل يحاول الحكيم هنا أن يقدم فلسفة شاملة تفسر الكون ؟

● وهل تتعدى التعادلية كونها تفسيرا لمذهبه فى الحياة والفن ٠٠ ؟

أيا كان الأمر ٠٠ وسواء كان ما يطرحه توفيق الحكيم مثيرا للقضايا الخلاقية فى مجال الفكر ٠ فان ما يعنينا هنا هو الاجابة على أسئلة محددة :

● هل تؤدى التعادلية الي التفسير لمذهب الحكيم فى الحياة والفن ؟

● وهل من الممكن أن نجد سماتها وابعادها فى أبداعه الأدبى ٠٠ ؟

● وبمعنى أكثر مباشرة ٠٠ هل سنجد في روايات الحكيم وقصصه ومسرحياته البيئة التعادلية والفكرة التعادلية والأشخاص التعادليين ؟ ٠٠

---

(٢) المرجع السابق ص ١١٨ ٠

● بل قد يتجه بنا الاســـترسال شـــأوا مع الفكرة لنتساءل : هل كان الحكيم شخصا تعادليا ؟ ٠٠ خصوصا وهو لم يغفل فى شرح التعادلية أن يضمن كتابه صفحات تحدد ماهية الشخصية التعادلية ومعالمها ٠

● بل هل يمكن للتعادلية أن تفسر الابداع الأدبى لغير الحكيم ؟ ٠٠

وهذه السطور هى مجرد محاولة للاجابة على تلك التساؤلات ، وهى أيضا بمثابة مدخل الى التعرف على تعادلية الحكيم نظرية ـ (اذا جاز لنا نعتها) ـ وتطبيقا من خلال ابداعه الأدبى ٠٠ والعمل على تحليل هذا الأدب ونقده ٠

وهذا أيضا ـ مما يدفعنا الى رصد بعض الملاحظات الرئيسية :

● ان كتاب التعادلية قد صدر فى سنة ١٩٥٥ م ٠٠ ويعتبر ترتيبه بين اصدرات الحكيم على اختلاف انواعها الابداعية ، الواحد والثلاثون ٠ أى ســـبقه ثلاثون من المؤلفات التى لها شهرتها ومنها : مسرحية أهل الكهف ، عهد الشيطان ، براكسا ، راقصة المعبد ، سلطان الظلام ، تاملات فى السياسة ، يوميات نائب فى الأرياف ، عصفور من الشرق ، سليمان الحكيم ، عودة الروح ، شجرة الحكم ، أرنى الله ، عصا الحكيم ٠

وقد سبقها خمسة مؤلفات مسرحية أقل شهرة أولها : الضيف الثقيل سنة ١٩١٩ ، و « أمينوسا » فى عام ١٩٢٢ ، والعريس ، و « خاتم سليمان » فى ١٩٢٤ ثم « على بابا » فى سنة ١٩٢٦ م ٠

والهدف من ذلك الرصد هو أن نضع على بساط البحث ابداع الحكيم سواء ما سبق كتابه التعادلية أو مالحق به من هذا النتاج الثر بهدف تحقيق التالى :

● ان الابداع الأدبى والفكرى الذى ســـبق كتابه التعادلية ، يحمل بذور التعادلية ، ان لم يكن هذا الابداع جاء بترجمة ذكرية لها ٠٠

● وان نتيقن من مدى اعتبار هذا الابداع السابق كان بمثابة الارهاص لبلورة وظهور التعادلية فى تكاملها ٠

● ولا نكتفى بذلك ٠٠ بل سنمضى قدما فى محاولة رصد التعادلية ٠٠ فيما لحق من نتاجه الأدبى بهدف التحقق من أن الحكيم قد واصل ابداعه من منطلق فكرى ثابت ، وعلى أســـاس من مذهب يرى أنه منهج خاص به يميزه ويتميز به ٠٠

ولا اعتقد أن أحدا يمكنه أن ينكر على هذه المحاولة المضى فى تفسير أدب الحكيم وتحليله فى ضوء التعادلية واطارها ٠ فان الحكيم نفســـه قد جعل التعادلية بمثابة الوصية الواجبة ، والتى جاءت ضمن انتاج أدبى ضخم ، وقبل الرحيل باثنين وثلاثين عاما ٠ فقد صـــدرت الطبعة التى بين أيدينا بالفقرة التالية :

« هذه الصفحات ليست سوى اجابه على سؤال ٠٠ اجابة موجزة عن سؤال مهم وجهه الى قارىء جاد ٠٠ وقد جعلت اجابتى للنشر لأنها قد تلقى ضوءا على كتبى التى نشرت ٠

ثم هى بعد ذلك تحمل تحديدا لوضع يمكن وصفه بانه مذهبى فى الحياة والفن (٣) .

التعادلية .. معـالم فكرية

وجدير بنا أن نمضى فى رحـــلة البحث عن روح التعادلية ومعالمها الفكرية الأولى ، فى الأعمال الابداعية التى سبقت الكتابة المباشرة عن فكرة التعادلية فى مقالات الحكيم التى توزعت بين دفات كتبه ، وقبل أن يشمل هذا المذهب كتاب يحمل عنوان « التعادلية » .

ووقفة ازاء أولى أعمال الحكيم الابداعية .. سنجد أن الحكيم نفسه ـ فى معرض تفسيره لمذهبه قد استشهد بذلك ، ومن ثم فقد مكن لمنهجنا أن يمضى قدما ، واننــا نسير على الطريق الصحيح ، فمثلا عندما يقول الحكيم : « فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الانسان الكائن وحده فى هذا الكون .. فهو يتشوق حنينا الى أحد غيره .. الى أرقى .. ولم يسعفه الدين باطار جديد لهذه الفكرة التى جعل يحن اليها .. فبقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة ، ولكن فى محيط العلم العقلى الذى لم يزل مسيطرا على فكره » (٤) .

ومن ثم فقد جاءت مسرحية أهل الكهف ـ صــدرت ١٩٣٣ ـ لتبرز هذا التعادل واختلاله بين العقل والقلب فى اطار مشكلة الزمن ، وان تفتقد فكرة التعادلية مناحى

---

(٣) المرجع السابق ص ٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠ .

أخرى من الحياة •• ففى العام التالى من اصـــدار أهل الكهف خرج الحكيم بمسرحيته « شهرزاد » ليبرز اختلال التعادل بين الفكر المطلق متمثلا فى « شـــهريار » الملك الجبروت الطـاغوت ــ والايمان العاطفى الذى تمثل فى « قمر » • ولقد سعت شهرزاد لتميد لزوجها ايمانه ببشريته، وعلى عكس هذه جاءت مسرحية « أهل الهكف » فكانت الحركة فيها مقيدة فى حيز المكان •

ووقفة ازاء مسرحية « سليمان الحكيم » ، ــ صدرت ١٩٤٣ ــ فلا يجب أن يفوتنا مغزى هذا التاريخ ، فانه يشير الى الزمن الذى تاججت فيه حمم الحرب الكونية الثانية • ولذلك فليس غريبا أن يفسر الحكيم الخلل العالمى بخلل فى التعادلية ، فأفرد للتعادلية فى السياسة الخارجية فى كتابه شرحا وتعليقا • فان التعادل بين القدرة والحكمة وثباته واختلاله(٥) • كان الموضوع البارز فى مسـرحية « سليمان الحكيم » •• لقد جاء سليمان الحكيم لتتغلب الحكمة ••

ويشير توفيق الحكيم الى أن الانسان فى « قلقه على سلامته وكيانه ، فهو يعيش من يوم الى يوم فى هذا العصر الحديث ؛ ناظرا الى ميزان التعادل بين القوة والحكمة ، بعين زائغة شاردة •• »(٦) •

واذا كان الحكيم فى منطلقه الأساسى للتفكير التمادلى بدأ بالانسان عندما يتساءل : ماهو وضع الانسان العام فى هذا الكون كما تصورته ؟ •• »

---

(٥) المرجع السابق ص ٥١ •

(٦) المرجع السابق ص ٢١ •

ثم يخلص الى مسألتين ·· الأولى : « أهل الانسان وحده فى هذا الكون ؟ » ·· والمسألة الثانية « هل الانسان حر فى هذا الكون ؟ »(٧) ·

فانه يجيب فى كتابه التعادلية :

« فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الانسان ليس وحده فى هذا الكون ·وهذا هو الايمان · وليس من حق أحد أن يطلب الى الايمان تعليلا أو دليلا ·· فاما أن نشعر أو لا نشعر ·· »(٨) ·

ولسنا بصدد وقفة عقلانية لمناقشة ذلك الرأى اليقينى ، ومن ثم فلنمضى فى منهجنا الذى يستهدف البحث عن تطبيقات هذا الفكر أو ذلك المذهب فى ابداعه الأدبى ·· ولنتأمل معا قصته « دولة العصافير »(٩) ، فهى تبرز المعنى البعيد :

« قال عصفور صغير لأبيه ذات يوم :

ـ ألسنا نحن يا أبت خير المخلوقات ؟

فهز العصفور الكبير رأسه وقال :

ـ هذا شرف لا ينبغى لنا أن ندعيه ، هناك من يزعم لنفسه هذا الحق ··

ـ من هو يا أبت ؟.

---

(٧) المرجع السابق ص ١٨ ·
(٨) المرجع السابق ص ٢٣ ·
(٩) أرنى الله ص ٧٢ ·

ــ الأنســـــان ٠٠

ــ الانسان ؟ ٠٠ ذلك الذى يرشق اعشاشنا بالحجارة؟ ٠٠ اهو خير منا ؟ ٠٠ أهو اسعد منا ؟ ٠٠ »

ومن ثم يقول الحكيم فى كتابه التعادلية « وبالطبع حرية الانسان لا يجب أن تكون مطلقة ولكن لابد لها من قوة تعادلها ٠٠ » وعندما تتضخم الذاتية عند الانسان ٠٠ فانها بداية طبيعية الى هدم النفس ٠٠ لأن التعادل ادركه الخلل ٠٠

يقول الحكيم فى التعادلية : « عندما جحد (يقصد الانسان) وجود غيره على الارض ، وانكر كل قوة غير قوته فى الدنيا ، لم يجد ما يوجه اليه غرائز حربه ، ونشاط كفاحه غير نفسه ، فانقلب محاربا نفسه ، هادما ذاته ٠٠ فى حين أن فكرة الشـــعور بالقوى الأخرى التى تواجه الانسان وتؤثر فى ارادته وحريته ، تدفع به فى نهاية الأمر الى أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد العوائق المستترة ، وهذه القوى الخفية ٠ »(١٠) ٠

ويقول الحكيم فى التمهيد ــ الذى بدأ به مجموعته القصصية « سلطان الظلام »(١١) ، والذى استغرق خمسين صفحة « لا أحد يطلب اليك أن تكون شيئا آخر غير مجرد انسان ــ أى لا ملاك ولا شيطان ٠

انسان ٠٠ أى ذاك المخلوق الذى يمشى بمهارة على حبل مشدود ، عن يمينه العقل والفكر والضمير وكل ما

---

(١٠) التعادلية ص ٣٥ ٠

(١١) سلطان الظلام صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٤١ م ٠

دخل في نطاق العالم الروحي ، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل في نطاق العالم الحيواني ‥ التوازن هو كل المطلوب ٠ وهو امر عسير المنال ‥ »

واذا كان الحكيم في عبارته السابقة اعترف بان التوازن أو التعادل أمر عسير المنال ، الا أنه ليس بمستحيل ‥ أى انه يقع فى حيز الممكن الانسانى ٠ ولذلك فهو يستطرد قائلا :

« حقا ‥ هذا التوازن عسير المنال ‥ وكم من الملايين ، وكم من الأجيال تسقط فى الهاوية اليسرى ‥ اما الهاوية اليمنى فلم يقع فيها غير قليل من الأنبياء والقديسين والفلاسفة والشعراء ‥ »

ويقول أيضا :

« في تاريخ الانسانية عهد صغير مزدهر ، هو حقا من مفاخر الانسان ‥ هو عهد الاغريق ‥ ربما كانت فكرة التوازن لا يتميز بها العهد الاغريقي وحده ، فالحضارة الاسلامية في عصورها الزاهرة هي خير مثال يقدم للتوازن العجيب فوق هذا الصراط المستقيم ‥ » واذا كانت هذه الأفكار عن التعادلية قد سبقت ظهور كتابه «التعادلية»(١٢) بأربعة عشر عاما ، فاننا نلمح في الفقرة الأخيرة ما يعتبر مع غيره من آرائه التي ربطت الفكر بالاسلام ‥ تكاد تكون ارهاصا لمولد كتابه « الاسلام والتعادلية » الذى ظهر بعد كتابه التعادلية بثمانى وعشرين عاما ٠ ويشير الحكيم

---

(١٢) التعادلية صدر عام ١٩٥٥ م ٠

صراحة الى مواضع الارهاص بفكرة التعادلية فى كتابه « فن الأدب »(١٣) ·· وحيث قال : « هذا الموقف من قضية العصر ، قد وقفته وتأملته ·· فالانسان عندى ليس اله هذا العالم وهو ليس حرا ·· ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل اطار الارادة الالهية ·· هذه الارادة تتجلى للانسان أحيانا فى صور غير منظورة من عوائق وقيود ، وعلى الانسان انيكافح لاجتيازها والتغلب عليها ·· »

كما يشير الحكيم الى ارهاص آخر ســـابق لفكرة التعادلية ، فى كتابه « تحت شمس الفكر »(١٤) · حيث يقول : « ولقد سبق أن بينت فى كتابى « تحت شمس الفكر » فى فصل بعنوان « منطقة الايمان » كيف ان العقل والايمان يمكن أن يعيشا جنبا الى جنب فى كيان الانسان ، دون أن يطغى احدهما على الآخر ، او يؤثر فى اسلوبه وهدفه(١٥)·

ولكن ماذا يريد اذا ما طغت منطقة الايمان ؟ ·· ماذا اذا تخلى الايمان عن العقل ؟؟ ·· واذا طغى أحدهما على الآخر ؟؟

فاذا كان الحكيم فى قصته « دولة العصافير » قد ابرز النظرة الجشعة فى الانسان وسيطرة النزعة المادية واحساسه بذاته المتضـــخمة ، فتتحرك نوازعه وغرائزه . فانه يقدم لنا وجها آخر للمسالة ـ عندما يستغرق الانسان

---

(١٣) فن الأدب صدر عام ١٩٥٢ م ·
(١٤) تحت شمس الفكر صدر عام ١٩٣٨ م ·
(١٥) التعادلية ص ١٠٦ ·

مطالب روحى محض ، فيحدث الخال ، وذلك من خلال قصة « ارنى الله » (١٦) وعندما قال الطفل :

« انك يا ابت تتحدث كثيرا عن الله ·· ارنى الله »

ــ ماذا تقول يابنى ؟

لفظها الرجل فاغر الفم ذاهل الفكر ··

ــ كيف اريك مالم اره انا نفسى ·· ؟

ــ اذا طلبت اليك ان تذهب لتراه ·· ثم تريني اياه ·؟

ــ سأفعل يابنى ·· سأفعل ··

وذهب الى الناس ، ورجال الدين ، ثم بشيخ ينصحه باللجوء الى الناسك ·· ويدور بينهما الحوار :

ــ كيف أراه اذن ؟ ··

ــ اذا انكشف هو لروحك ··

ــ ومتى يتكشف لروحى ؟ ··

ــ اذا ظفرت بمحبته ··

ودعى له الناسك بنصف ذرة من محبته ··

واختفى الرجل فى الجبال واشـــيع أنه جن ، فذهب أهله والناسك اليه ، لكنه لم يشعر لهم بوجود ·

---

(١٦) أرنى الله ص ٩ ·

وقال الناسك :

ـ « لا جدوى ٠٠ كيف يسمع كلام الآدميين من كان في قلبه مقدار نصـــف ذرة من محبة الله ؟ ٠٠ والله لو قطعتموه بمنشار لما علم بذلك ٠٠

وقال الطفل :

ـ « الذنب ذنبى ٠ أنا الذى سألته ان يرى الله ٠

فالتفت اليه الناسك وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ارايت ؟ ٠٠ أن نصف ذرة من نور الله تكفى لتحطيم تركيبنا الأدمى ، واتلاف جهازنا العقلى » (١٧) ٠

ولعل ما جاء فى التعادلية يقدم ايضاحا أكثر لمغزى هذه القضية ، يقول الحكيم : « الاختلال فى التعادل بين تطور الفكر وتطور الايمان قد عرقل سير الانسان فى طريق الرقى الكامل ، كما عرقله أيضا اختلال آخر فى التعادل بين تطور الفرد وتطور المجتمع ٠٠ »(١٨) ٠

---

(١٧) المرجع السابق ص ١٣ ٠

(١٨) التعادلية ص ٣٥ ٠

التعادلية وحرية الانسان

- أبدية الخير والشر
- يوتوبيا جديدة

التعادلية .. وحريـة الانسان

وتتسع تعادلية الحكيم لتشمل عالمى الحيوان والانسان فيقول : «.. الحيوان يولد مكبلا بالمعرفة المتحجـرة أى الغريزة ، والانسان يولد مجردا .. اى حرا .. وعليه أن يكتشف المعرفة من جديد فى كل مرة يولد .. » ومن ثم فهو يخلص الى أن الوضـعية الأولى ـ الخاصـة بالحيوان ـ جبرية لا حرية فيها « اما الانسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقيده ويكبله »(١) .

وانه ليتسنى لنا أن نلمس تعادلية الانسـان « فى الابداع الأدبى لتوفيق الحكيم .. ففى قصته « امرأة غلبت الشيطان »(٢) ، التى استهلها بـ « كانت دميمة هذه المرأة .. لم تعرف ربيع العمر ، ولكنها عرفت خريفه وشتاءه .. لم يورق لها أمل ، ولكن دموعها هطلت كالمطر ، والفرح تساقط فى قلبها كأوراق الشجر .. وبرد الحرمان من متع

---

(١) التعادلية ص ٢٧ .

(٢) نشرت ضمن المجموعة القصصية « أرنى الله » ص ١٢٧ .

الجسد قد ضرب من حولها نطاقا ، انها جزيرة الكآبة فى محيط السكون ، هكذا تعيش ، وهكذا ستموت ٠٠ لن يضم خصرها رجل ٠ ولم تعرف شـفتاها الصلوات لسـماء لا تسمع واللعنات على قدر لا يرحم ٠٠ »

والواضح أن « الدمامة » الموت و « التعطش » ٠٠٠ كل منها مطلق ، وكل منها يساوى صفرا ٠٠ كالواحد الصحيح تماما فى عرف التعادلية « ـ كما أن الانسان بدون حركة فهو سلبى فى ضوء التعادلية » ٠٠

فماذا فعلت المرأة ٠٠ الرمز الذى وظفه الحكيم ؟ ٠٠

انه تخيل لنا ولها كما اقتضى الابداع ، ان الشيطان ظهر لها مثلما فعل مع « فوست » وذلك عندما صاحت صيحة اهتزت لها أركان كيانها القبيح :

ـ ايها الشيطان ٠٠ لم يبق الا أنت ٠٠

وأطرقت فى شبه غيبوبة ٠ واذا الجدران تنشـــق ويظهر لها الشيطان كما ظهر من قبل للعلامة « فوست » والشيطان لا يصم آذنيه عن الدعاء ٠٠

وتطلب منه : « الجمال و الحياة » و « المتعة » ، فى مقابل روحها ٠

انها قررت أن تهدم التعادلية ، الروح مع الجسد ، نتيجة لعثرة حظها بجسد دميم ٠٠ واما ما سيفعله الشيطان بروحها فهو « اذهب بها الى الجحيم ٠٠ ذلك عملى فى الأرض ٠٠ أسعى لجمع الأرواح اعمر بها مملكتى « جهنم » لنرى آخر الأمر أيهما الظافر بأكبر تعداد : أنا الجالس على عرش النار ، أم ذلك على عرش الفردوس ؟ ٠٠ »

وهكذا من جسد دميم تفقد الروح الطاهرة . وقالت :

ـ « أعطني المتعة في الأرض عشر سنين ثم أذهب بي بعد ذلك الى حيث شئت » ..

« وحررا بدم المرأة الحسك المعهود ووقعت عليه بامضائها .. »

« ومس الشيطان بيده جسد المرأة فانتفضت .. وأشار لها باصبعه الى مرآة الخزانة .. فنظرت فاذا جمال يضيء منها كأنه شهاب . انه جمالها .. أهي صاحبة هذا الجسم .. الها هي هذه الروعة والفتنة والسحر .. » .

وعبت المتع ، وقرب انتهاء العشر سنين طلبت أن ينيلها متع الروح لشهرين بقيا . بعد أن شبعت من متع الجسد » ..

وعندما عاد الشيطان اليها ، وكانت قد ارتدت الخشن من ثياب النسك وأدت فرائض الحج ، وغرقت في التأملات السامية ، وانقطعت للأعمال الصالحة ، وأوغلت في الحياة العليا الطاهرة ،فاذا هو يرتعد لمرأى المرأة .. يالله من جمال يدثر كيانها ، ليس هو الجمال المضيء كالشهاب المحرق .. ولكنه نور عميق لطيف يعرف مصدره العلوي .. فارتاع منه . » الى آخر ما جاء في القصة من صراع بينه وبين ملائكة الجنة الذين حسموا قضيتها :

« ليس لك ذنوب أولى .. لقد ذابت في نور طهرك الأخيرة .. »(٣) .

---

(٣) امرأة غلبت الشيطان ص ١٣٣ .

لقد اتضح أن المعرفة السابقة ليست قيدا للانسان ، انه يمكنه الاختيار ، ولكن فى مفهوم تعادلية الانسان ·· فى اطارها الاخلاقى الايجابى ، وبالتالى فهى تستعصى على الشيطان وبالتالى فلا تعرف الجحيم · ولا تغفل هنا ايضا ايمانية الحكيم والتزامه الدينى ، اذ جعـــل التوبة لاحقة للمعصية ، وبالتالى نجح مساره الفكرى خلال هذا الاطار الابداعى ، واتضـــحت أيضـــا من خلاله فكرة التعادلية فى اطار اللاجبرية ·· بل الاختيار أمام الانسان ·· عندما جعل بنقاء الروح التوسل ، حتى يغفر ما ارتكبه الانسان من خطايا جسدية ·· انها ايضا تضية الروح والجسد فالانسان والتعادل « شهيق يعادله زفير ، مادة تعادلها روح » · و « الانسان اذن كائن متعادل ماديا وروحيا »(٤) ·

واذا كان الحكيم يطرح قضية الأدب والجانب الروحى، فان ذلك ياتى فى اطار يحدده قائلا :

« ولنترك الانسان من ناحية المادة لرجال العلم ، فما يهم رجال الأدب والفن هى الناحية الروحية فى الانسان ·· واذا كانت الناحيتان متداخلتين احيانا »(٥) ·

وهذا النوع من التعادل ، قدمه فى نموذج تصـــوره قصة « عهد الشيطان »(٦) ، وهى قريبة من قصة « امرأة غلبت الشيطان » ·· وان كانت القضية هنا تنحصر فى « العقل » و « القلب » المعرفة فى مقابل الشباب ··

---

(٤) التعادلية ص ١٣ ·
(٥) المصدر السابق ص ١٤ ·
(٦) عهد الشيطان ط ٢ الناشر مكتبة الاداب ـ مصر ١٩٤٢ م

وهكذا يحدث الخلل فى التعادلية ..

ولنقرأ معا بعض ملامح من القصة التالية .

« كان يقرأ قصة « فوست » تحكى وهو فى الثمانين ، ويعود للوراء « يوم كان خلانه يقولون « الحب » كان هو يقول « المعرفة » . ثم يظهر الصوت الخفى لفوست ، بانه أطلع على مافى نفسه . وقال له انه يستطيع ان يمنحه ما فى نفسه . وكان الشيطان الذى تجسد له انسانا . فطلب الشباب مقابل علمه ، ولكن الشيطان طلب « نفسه » وكتب العهد بدمه .

ويعود الحكيم ليتحدث على لسان بطل قصته ، ان كل ما يطمح اليه هو المعرفة ، ولم يأت اليه الشيطان ، ولكنه يتوهمه وسماه « مفستو » ويدير معه حوارا ، فطلب منه نفس « فوست » او نفس جوته فى مقابل الشباب ، كما رغب الشيطان . وهكذا غرق الراوى فى بحر المعرفة ومسائلها العويصة ، ولكن بعد ثلاثة عشـــر عاما تنبه أمام مرآة الخزانة ، فاكتشف ضياع الشباب وهجوم الشيخوخة » كأنها صك بزوال زهرة الحياة الى الابد ، فما تمالكت ان صحت :

ـ الشباب « الشباب قد اخذ الشباب »

يقول توفيق الحكيم : « والحياة الروحية السليمة هى اينما تعادل بين الفكر والشعور » ..

أبديـــة الخير والشر

وليس غريبا على شمولية « التعادلية » ان تقف ازاء « الخير » و « الشر » بحثا وتمحيصا ، وان جاء ذلك فى تركيز وتكثيف شديدين ..

« واذا ذكرت مسئولية الانسان منذ القدم ذكر الخير والشر لأن الخير والشر هما الموجب والسالب فى كهرباء العلاقات البشرية .. والخير والشر فى رأيى لا شأن لهما بالانسان الفرد ، ولا وجود لهما بالمجتمع .. »(٧) . بل يجعل الشر ضـــرورة لندرك الخير وبالتالى فابليس عند المسلمين ، أو الشيطان عند المسيحيين لابد منه ، حتى يكون للخير قيمة ، ولكى يكون لدور العبادة دور فى دعوة الناس لاجتناب الشر، والتخلص من تأثير ابليس أو الشـــيطان تحقيقا للخير .

ولكى يدلل على التعادلية من خلال الخير والشر ..

---

(٧) التعادلية ص ٤٠ .

اجا الى تصوير ذلك فى قصته « الشهيد »(٨) . وهما انها من اغرب القصص فى ادب توفيق الحكيم فانها لعلى روعة جلية :

الزمن احتفال روما بعيد السيد المسيح . « ابليس » يذهب الى الفاتيكان يطلب التوبة متطلعا الى الخير لكن البابا وقع فى حيرة .. واضـــطرب وارتعد للفكرة .. وصاح كالمخاطب نفسه : « لا .. لا .. لا .. لا أستطيع هذا .. »

« اذا امن ابليس . ففيم اذن بعد اليوم مجد الكنيسة ؟ .. وما مصير الفاتيكان ومتاحفه وتحفه ومخلفاته الدينية الكبرى ؟ »

« مامعنى يوم الحساب اذ محى الشر من الارض ؟ .. وهل يحاسب اتباع الشيطان الذين تبعوه قبل ايمانه ، أم تمحى سيئاتهم مادامت توبة ابليس قد قبلت ؟ »

..

فى النهاية قال له « ان الكنيسة ترفض طلبك .. اذهب اذا شئت الى دين آخر .. وولاه ظهره » ..

فيمم ابليس شطر حاخام اليهود .. يطلب التوبة ..

« فتامل الحاخام قوله مليا : اذا عفا الله عن ابليس ومحى الشر من الأرض .. ففيم اذن التمييز بين شعب

---

(٨) الشـــهيد. قصـــة قصـرة ضمن مجموعـــة « أرنى الله » ص ١٤ .

وشعب ؟ ·· بنوا اسرائيل شعب الله المختار ·· لن يكون بعد اليوم مبرر لاختيارهم دون بقية الشعوب ، ولا امتيازهم على بقية الأجناس ·· »

واتجه ابليس لوقته الى شـــيخ الازهر وطلب التوبة والدخول فى الدين · « وتأمل شيخ الأزهر العواقب لو اسلم الشيطان ، فكيف يتلى القرآن ؟ ·· هل يمضى الناس فى قولهم « أعوذ بالله من الشـــيطان الرجيم ؟ ·· » او تقرر الغاء ذلك لاستتبع الأمر الغاء أكثر آيات القرآن ·· فان لفظ الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب الله قدرا عظيما ·· كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل اسلام الشيطان دون أن يمس بذلك كتاب الاسلام كله ؟ ·· »

واتجه ابليس الى السماء فقابله جبريل قائلا :

بل جئت قبل الأوان ·· ليس لك الساعة أن تغير النظام الموضوع · ·ولا أن تقلب ما استقر من أوضاع ·· عد من حيث أتيت وعش فى الأرض كما عشت ·

·· انالتعادل بين الخير والشر فى الحياة الدنيا هو أمر تقتضيه طبيعة الحياة البشرية ·· فلا الحياة شر مطلق ولا هى بالخير المطلق ··

يوتوبيا جديدة

برغم دهشتى عندما بلغت فى دراسة « التعادلية » هذا الجزء الذى يبحث فى اختـــلال التعادل بين تطور الفكر وتطور الايمان . والذى يقول فيه توفيق الحكيم : « الاختلال فى التعادل بين تطور الفكر وتطور الايمان قد عرقل ســير الانسان فى طريق الرقى الكامل ، كما عرقله أيضا اختلال آخر فى التعادل بين تطور الفرد وتطور المجتمع·· »(٩) ·

الا ان هذه الدهشة لم تطل بى ·· عندما وقفت ازاء رؤيته من منظور التعادلية للخير والشر أنه ليس فى منهج المعتزلة وأشباههم الذين ينكرون الشر ، ولكنه يعترف : « أن الشر والخير ، كالليل والنهار ، يتعادلان ولا ندرى أيهما أسبق ·· وقد يكون الشر هو الأصل فى الانسان ، لأنه متصل بالوعى الأساسى للانسان : وهو الشعور بالذات وحب هذه الذات ··· (١٠) ·

---

(٩) التعادلية ص ٣٩ ·

(١٠) المرجع السابق ص ٤٢ ·

والحكيم لا يكتفى بهذا الاعتراف ، ولكنه يفسره أيضا من منظور التعادلية ·· من حيث الموقف منه والنتيجة الواجبة ·· وهو منظور ، قد دفعنا الى بحث هذا الجانب من « التعادلية » واختار له عنوان « يوتوبيا جديدة » وحتى يتضح ذلك العنوان للقارىء غير المتخصص وتتضح الزاوية التى رايت أن أطرح الفكرة من خلالها للمناقشة ، فعلينا ايضاح ان يوتوبيا (الطوباوية) هى كلمة يونانية معناها « لا مكان » وقد استعارها بهذا المعنى « توماس مور عنوانا لكتابه « آرون » مقلوب Nowhere ويصور فيه الدولة المثلى فى رأيه ، بحيث يتسنى فيها أن تتحقق السعادة للناس ، وبحيث تكون مدينة خالية من الشر · واذا كانت « يوتوبيا » صارت عنوانا ووصفا للعديد من الكتب التى تعنى بهذا الاتجاه فى الفكر والفلسفة فأيضا صارت تصدق على القصص التى تهتم بهذا المفهوم ·

واذا كانت احدى اليوتوبيات الأولى تصور المرض والجريمة فى اطار الشر ، فانها كانت ترى أن تمضى بالمجرم الى مصحة توفر له عوامل الصحة والعافية لتخليصه من الاسباب والدوافع الى الجريمة · واذا كان المؤلف اليوتوبى قد اشتط فى الفكر عندما رأى المضى بالمريض الى الزنزانة ويغلل بالقيود ·· الا أن هذا لا يقل غرابة عن افكار اليوتوبيا بوجه عام ··

فماذا من اليوتوبيا فى تعادلية الحكيم ·· اليوتوبيا الحديثة فى اطار الفكر المعاصر ؟ ·· يقول الحكيم :

« ولكن المجتمع فى تطوره نحو النظام رأى أن خطر الغير لابد أن يوازن ويعادل بفعل آخر هو : نفع الغير ، وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير وضـــعا هاما من أوضاع السلوك العام ، فمجد الخير وحقر الشر » ·(١١) ·

ومن ثم فان توفيق الحكيم يرى من خـــلال الرؤيا اليوتوبية فى « التعادلية » أن : « من يأتى عملا يضر الغير، يستطيع أن يأتى عملا ينفع الغير ·· وهو لذلك ليس خيرا ولا شريرا ، ولا صحيحا ولا مريضا فى أحواله العادية، انما هو موضع نتعادل فيه وتتوازن هذه الحالات المختلفة المتغيرة ·· »(١٢) ·

وهذه النظرة اليوتوبية من الجريمة والعقاب ، قد عبر عنها من خلال ابداعه الأدبى، ولعل من أوضحها ماتضمنته مسرحيته « شمس النهار »(١٣) ، وذلك عندما طرح كل من « قمر الزمان » و «شمس النهار» ، حلا تعادليا ، بالنسبة للأموال المسروقة ، وهو ردها الى الخزانة ، واســـدال الستار على كل من اتهم بالسرقة · وهو فعل الهدف من ورائه عقاب من نوع آخر يأتى من المنطلق الذى قال فيه الشاعر العربى :

« وليس قتل الأحرار كالعفـــــو عنهم »

---

(١١) التعادلية ص ٤٢ ·

(١٢) المرجع السابق ص ٤٤ ·

(١٣) شمس النهـــار افتتح بها المسرح القـومى موســـمه سنة ١٩٦٤ ونشرت عام ١٩٦٥ ·

بمعنى أن العفو والتسامح يصلح من نفس المخطىء ويأتى بما لا يحدثه العقاب .

وهذا ما بسطه الحكيم قائلا : « والرأى عندى هو اعادة النظر فى طريقة الحساب والعقاب ، فيماعدا عقوبة الاعدام للقتل العمد .. فهى لابد أن تبقى .. لا على أنها عقوبة ، بل لأنها وضع طبيعى .. مطبقا لمذهب التعادل لا شىء يعادل حياة الانسان غير حياة الانسان » .

... أما بقية الجـــرائم التى يعـــاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية : أى بالحبس والسجن ، فهى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس جديد .. على أساس المعادلة ـ لا بين الحرية والشر ـ بل المعادلة بين الخير والشر .. أى ان من يرتكب فعلا يضر الغير يجب ان يعادله بفعل ينفع الغير .. وعلى هذا الوضـــع يجب ان تلغى السجون ، ويقام بدلا منها مصانع وأدوات انتاج .. فمن فعل شرا بالمجموع عليه أن ينتج خيرا يفيد المجموع ، دون حاجة الى أن يطرد من مجتمعه ، أو يقصى عن اهله وذويه، أو يحرم من حريته فى ممارسة حياته العادية .. »(١٤) .

ويدعم الحكيم هذا العقاب المثالى ، بان السجون هى التى تجعل من مرتكب الجريمة محترفا بعد ذلك ، فالسجون بمثابة تقسيم بين مجتمع الأخيار ، ومجتمع الاشرار .. حيث تتعمق المفاهيم السلبية التى تعادى المجتمع وتكدر أمنه ..

---

(١٤) التعادلية ص ٤٧ ، ٤٨ .

التعادلية وارادة الانسان

التعادلية وارادة الانسان

وعندما نتساءل عن مباشرة الانسان لارادته فى عرف التعادلية وميزانها .. نجد أن الحكيم يقرر « ان ارادة الانسان في كفتها تعادلها الارادة الالهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادلها الايمان في كفة ..(١) .. وعندما نتقصى هذا المعنى فى الجانب الابداعى . تستوقفنا قصة « السابحة وغريقها »(٢) وفيها يحاول الشاب بكل حريته وارادته أن يتخلص من الحياة . وكلما حاول كانت امرأة بعينها تقف أمام تنفيذ الفكرة ..

فالقصة تسجل صراعا متعادلا بين قوتين متعارضتين، الأولى الرغبة فى التخلص من الحياة ، والثانية تمنع وقوع ذلك ونجد أن هذا الشخص لديه مبرراته الشخصية حسب تصوره فيقول محاورا هذه المرأة « لولا تدخلك الطائش لكنت الآن فى عالمأرقى .. »

---

(١) التعادلية ص ٤٠ .

(٢) قصة قصيرة نشرت ضمن كتاب « راهب بين النساء » صدر فى يوليو ١٩٧٢ م .

فاذا كان « هو » يمثل عقلية فى حالة افرازها السلبى، و « هى » تمثل المنطق الايمانى · كما تمثل الوسيلة للتدخل الميتافيزقى ليعادل ارادة الانســـان ولا تصبح مطلقة ·· خصوصا فى أحد الأمور المطلقة كالموت ·· ومن ثم فانها ترد عليه قائلة فى مغزى عميق :

« ·· ولماذا لا تعتبرنى ملاكك الحارس ؟ ·· »(٣) ·

ثم يدور حوار فكرى له مغزاه ــ حيث يؤكد فكرة حرية الارادة ، التى تعادلها قوة أخرى غير منظورة قالت :

« انك لم تدخــل الحيـــاة بارادتك حتى تخرج منها بارادتك » ·

ويرد عليها قائلا :

ــ « كدت اخـــرج منها بارادتى ، لولا فضـــــولك وانحشارك فيما لا يعنيك ·· »

ــ لا تعذب نفسك ·· حاول أن تعيد النظر فى الرواية ·· أعنى فى الحياة ·· فقد ترى فيها ··

فلم يدعها تكمل عبارتها ·· (٤) ·

وبغض النظر عن حوارات ما قبل نهاية القصة ·· الا أن ما يعنينا هنا الرؤية الفكرية ، التى ساقها المؤلف خلال هذه الشخصية الرافضة ،الخارجة على ميزان التعادل ، ويقدم لنا رؤيتها غير التعادلية مما دفعها الى هذا التهور · ولنتأمل هذا الحوار :

---

(٣) قصة السابحة وغريقها ص ١٢ ·

(٤) المرجع السابق ص ١٩ ·

، فلم يدعها تكمل عبارتها .. وانتفض قائلا :

ـ « لا .. لن أرى غير سخيف وقبيح .. أنت لا ترين ما أرى لأنك لا تفكرين برأسك .. وأغلب الناس مثلك ..

أتدرين ما الحياة .. انها مرآة .. لا كمرآتك تعكس لك وجها جميلا .. ولكنها مرآة من مرايا « اللونابارك » تعكس الحقية طويلة وقصيرة ، ومنتفخة ونحيلة .. لقد تأملت فوجدت أنه لا توجد في الحياة حقيقة ثابتة ، فما نسميه بالخير والجمال والعدالة والحرية .. الخ .. ليست سوى أشياء لا أحتفظ بصفاتها طويلا دون أن تتحول الى جواهر جديدة عكسية مناقضة .. فالحرية اذا امتدت فى المسافة والبعد صارت عبودية .. والعدالة اذا امتدت الى نهايتها فتصبح هى الظلم .. والجمال فى امتداده ينقلب الى قبح ، والخير الى شر .. حتى المواقع الجغرافية فى هذه الدنيا ليست ثابتة فاذا امتد الشرق الى نهايته تحول فجأة الى غرب .. »(٥) .

ونستدرجنا فكرة مطابقة التعادلية كمذهب مع الابداع الأدبى ، وخاصة فى مقولته « الضعف والنقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى معوضة معادلة ، على الانسان أن يستخرجها من مكامنها فى نفسه(٦) وهنا تستوقفنا قصته القصيرة « لا كرامة لنبى فى وطنه »(٧) . والتى استهلها :

---

(٥) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٦) التعادلية ص ١٠٦ .
(٧) نشرت ضمن مجموعة « قصص توفيق الحكيم » المجموعة الأولى ص ٨٥ صدرت ١٩٤٦ م .

« كانوا فى القرية يطلقون عليه اسم زنجر ·· » ويصفه كانه يحمل كل مساوىء الشكل والوضع ·· زنجى قبيح الصورة مخروم الأذن ·· وهو بهذه الصفات لن يتزوج ابدا ·· وكلما سئلت فلاحة :

« يابنت أتتزوجين الولد زنجر ، فما أسمع الا دقة على صدرها وصيحة :

ـ ياخيبتى ·· !

أو : ضاقت علينا الدنيا مابقى غير زنجر ؟

وفجأة يتزوج « زنجر » البنت سلطانة · أجمل سلطانة ··

« كيف حدثت المعجزة ؟ « لقد عمل فى الاشراف على ترحيلة نقاوة الدودة فى غير بلده ، ومن حسن معاملته لبنات الترحيلة أعجبت به سلطانة وغرقت فى غرامه وسعت اليه زوجة ·· لقد كان ينقصه الشكل والمال ، ولكن جمله حسن الخلق ·· فأمكنه بذلك أن يعادل ماكان ينتقص من قدره فى عين المرأة ··

والحكيم فى التعادلية يمجد الفكر ويضعه مكانة أسمى ، ولذلك فشخصية المفكر عنده لها قدسيتها الخاصة جدا وقد استهل روايته « الرباط المقدس » بفصل عنوانه « راهب الفكر » وفيه يقرن بينه وبين أخلاقيات الكلمة ومن يتولاها وكيف تكون حياته ويخوض فى وصفه منطلقا به فى عالم الفكر ليضعه فى المكانة اللائقة :

« هؤلاء (يقصد المفكرين) ـ حركوا العالم وساروا بالانسانية ·· انى أشعر بينهم وأنا فى هذه العزلة والركود

ان كل شيء من حولي حركة دائمة · كل شيء ساكن الا الفكر ·· ما الفكر الا حركة كبرى ·· »(٨) · واذا كان لراهب الفكر فى هذه الرواية دور المصـــلح الاجتماعى العظيم ، فقد جعل للفكر مكانته فى معالجة دفة الحوادث ، وكيف يدخله فى صراع مع بطلة الرواية ثم يمتحن فى مثاليته ،وماذا يحدث اذا غلبه الهوى ، فيميل المـــيزان ويختل التعادل ، ولكنه يربأ به أن ينجسر عن دوره اللازم له ، وهو أن يكون بمنأى عن الانقياد لســـــلطان المرأة والعاطفة والرغبات ·· الخ ··

يقول الحكيم فى التعادلية : « ماهو الفكر ، وماهو السلطان ؟ »

و « التعادل بين القوتين (يقصد الفكر والعمل) يبطل : اذا ابتلع احدهما الاخر ·· الخوف دائما على الفكر منذ القدم ·· لأن العمل « أى الحكم » هو الأقوى ·· وهو الذى اعتاد أن يبتلع الفكر »(٩) ·

وشخصية راهب الفكر فى « الرباط المقدس » هو المفكر الأديب ، لا ينفصل عما تطرحه التعادلية ، او ما يؤكد عليه الحكيم باســـتمرار فى كتاباته الفكرية · فقد كتب تحت عنوان : الأديب ومصير العالم »(١٠) :

---

(٨) الرباط المقدس ص ١١ ·

(٩) التعادلية ص ٦٤ ·

(١٠) ادب الحياة ص ١٨٧ · ط ١ · مارس ١٩٥٩ · الناشر دار الكاتب العربى ·

« رسالة الأديب المعاصرة فى توجيه مصير العالم ، لها عندى أهمية جوهرية لذلك مرة أخرى أقول : عندما نشرت سليمان الحكيم » عام ١٩٤٣ ، ولم يكن قد وقع بعد ذلك الحدث العظيم الذى هز البشرية وهو انطلاق تلك القوة الهائلة من الذرة ‥ كما انطلق « الجنى » من القمقم ‥ ولم تكن الحرب القائمة الدائمة فى أغوار الانسان ، قد أسفرت عن وجهها الحقيقى ؟ ‥ تلك الحرب بين غريزة السيطرة والطموح ، التىتمتطى « القدرة » الجامحة ، وبين الحكمة « العاقلة » التى تريد أن تمسك بأعنة المطية الخطرة » ‥

ويواصل الحكيم لتأكيد ضرورة استقلالية الأدب عن السياسة ، أى « الفكر » عن « العمل » كما فى المصطلح التعادلى » ‥ فكتب تحت عنوان « السياسة والأدب » :

‥ ولنفترض دائمـــا أن الأدب قدير على أن يحتفظ بطبيعته وقيمته وروعته وهو يواجه مشكلات عصره · فما هى السياسة التى يتبعها ؟ ‥ ومن الذى يضعها له ؟ ‥

اذا كان لى أن أجيب فانى أقول : سياسة الأدب يجب أن يضعها الأديب نفسه · فهى يجب أن تنبع من ذاته ، وذات احساسه وادراكه ووعيه لقضايا العصر الكبرى ‥ اجتماعية كانت أو سياسية أو فلسفية · يجب أن تنبع من ذاته لأن تلك طبيعة الأدب الخالدة ، التى لا سبيل الى تغييرها ‥ لأن بدونها لا يبقى الأدب أدبا ــ هى أن ذات الأديب هى النبع دائما ، كل ما فى الأمر أن ذات الأديب التى كان ينبع منها فى الماضى الاحساس والوعى وادراك

للمسائل الخاصة والقضايا الصغيرة قد تحول احساسها وادراكها ووعيها للمسائل العامة والقضايا الكبيرة ..

ذلك هو المقصود من « سياسة الادب » وهو بالطبع شيء آخر غير « أدب السياسة » ..

أما « أدب السياسة ، فهو الادب الذى يخدم سياسة وضعها نفر آخر من أهل الحكم أو الأحزاب أو المذاهب العلمية ، انه أدب لا ينبع من ذاته ، ولكنه ينبع من أفكار وتعاليم او توجيهات الآخرين » (١١) .

وكانى بالحكيم منذ قبع على كتابه « سلطان الظلام » تاليفا والذى نشر عام ١٩٤١ يواصل ابراز فكرة التعادلية والتأكيد على مكانة الفكر في مقابل العمل ، أو الأديب فى مواجهة السلطان .. فمن التمهيد الذى سبق محتويات هذه المجموعة القصصية السياسية والتى تعتبر المجموعة القصصية الثانية له بعد مجموعته الأولى « عهد الشيطان » يقول الحكيم :

منذ ادركت أن الحرب حرب القوى الأرضية ، وان السلطان سلطان الظلام ، وان الأمر للزعماء المروضين ، رأيت الدفاع متورطا بالقوى الروحية والفكرية وسلطان النور والقادة الروحيين » .

كما يضيف . « انى أزدرى ، وسأزدرى دائما القوى الوحشية فى ذاتها ، وانى أدعو ، وسأدعو دائما الى القوة

---

(١١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

الفكرية والمعنوية ، التى تنتج القوة المادية الخصبة الغيرة الكفيلة بتنمية مواهب الانسان وفضائله ، وضمان حرياته وحقوقه ، ويمكن النوع البشـــرى من الاســـتمرار فى الرقى ٠٠ »(١٢) ٠

وفى كتابه « سلطان الظلام » يعرض الحكيم من خلال قصته القصيرة « تلميذ الموت » التى أهداها الى « أعداء الانسانية » ، لنموذج العمل ـ أى الحكم ٠٠ قاصدا الحاكم الفرد الدكتاتورى ٠٠ وقد استهلها قائلا : « جلس الموت ذات صباح فى قاعة عمله ، الى مكتب ضخم يقوم على عظام فيل ٠٠ الخ ٠٠ »

« ومد يده أخيرا الى ملف فوق مكتبه وانتزع منه ورقة ، وجعل يطالع مافيها من احصاءات وأرقام ٠٠ على مهل ٠٠ وفى شىء من التأمل العميق ، ثم طرحها فجأة نافذ الصبر ٠٠ وصاح :

ـ هذا افلاس ٠٠ ان هذا هو الافلاس ٠٠

لقد تضاءلت حصيلته من الموتى شيئا فشيئا ، وهذا فى رأيه خلل « وطلب قادة مملكته وعلى رأسها المرض الذى اعتذر بســـلطان العلم وظهور الأدوية ٠ وطلب مندوب « الحرب » ، فقال له أن السلام انتشر على ربوع العالم : « كل شىء ينم عن استقرار السلام والهناء والجمال ٠٠ ويدل على أن الحياة تتجدد وان الخصـــب يدب فى كل شىء ٠٠ »(١٣) ٠

---

(١٢) سلطان الظلام مجموعة قصص ٠ التمهيد ٠

(١٣) المرجع الســابق ص ٦٣ ٠

لكن الموت ٠٠ استطاع أن يجد من يعينه على الحياة وعلى السلام وعلى العلم ٠٠ من خلال البشر انفسهم ٠٠ « وهنا وجد الموت ضالته ٠٠ (يقصد رجلا مجنونا) ٠٠ وحمله الى حانة بيرة ومما قاله له :

– وكل هذا الذى يسمونه المدينة يجب أن يصب علية لون الثورة ٠٠ »

اى الدم ٠٠ والدمار ٠٠

وفى نفس المجموعة القصصية : نلتقى مع قصة « شهرزاد مع شهريار العصر » ٠٠ ويتضح من استهلال هذه القصة سيطرة فكرة التعادلية او التعادل بين الفكر والعمل ٠٠ بين شهرزاد التى تاتى بالحكمة وشهريار الحاكم السفاح ، الذى ما كان يتخلى عن جبروته لولا صوت شهرزاد والذى يصفه الحكيم :

« شهر زاد ٠٠ اذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم،فاعلم انك لفظت باسم عظيم ٠٠ فهو اسم تلك التى استطاعت ان تجعل من شهريار سافك الدماء ، رجلا مهذبا محبا للخير ، مترفعا عن العدوان ٠٠(١٤) ٠

لقد كرست القصة شخصية شهرزاد لتتحدث بعقل البشرية وضمير الانسانية ٠٠ لكنها اى شهرزاد فى نهاية القصة سكتت عن الكلام المباح ٠٠ ولا يريد الحكيم ان يكون سكوتها هو النهاية ٠٠ بل يعتقد أن المعركة ستظل مستمرة بين « الفكر والعمل » او المفكر والحكم » ، او الأديب والحاكم » وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن

---

(١٤) المرجع السابق ص ٩١ ٠

الـــكلام المباح ـ المباح مؤقتا باذن خاص من شـــهريار العصر ـ وسكت • ولا يدرى احد اكان سكوته لاقتناعه بحديث شهرزاد ، أم للتفكير فى طريقة للتخلص من هذه المراة الخطرة »[١٥] •

ويتكرر التوظيف من توفيق الحكيم « لـ « شهرزاد » فى قصة اخرى ضمن مجموعته القصصية عهد الشيطان وهى : « امام حوض المرمر » انه هنا يعبر عن اشكالية التوفيق بين الفكر والعمل او بين الكاتب والحاكم •

ففى هذه القصة يصور « شهرزاد » وقد جلست فى قصرها المسحور ، تنظر باسمة فى حوض المرمر قد انعكست أشـــعة عينيها الذهبيتين على أركانه ، وجلس بين يديها الوزير الجميــل « قمر » فى اطراقه وحيائه ودار بينهما حديث •• هو يطريها ويبخس « شهريار » وهى ترده فى مكر • ويســـتمر الحديث حول عيوب شهريار وســمات « شهرزاد » حتى دخل المؤلف عليها « المعجب المفتون » •• وتطلب له الجلاد لتوقحه فى النظر اليها •• ويدور بينهما حوار وتعارف ، ويعجبان ببعض ، ويحقد الوزير وتمضى شهرزاد لتقدم قبلتها للمؤلف ولكنه يجفل وتعتقده شهريار أو هو تابع له •• بينما المؤلف ينفى عن نفسه ذلك •• ولكن فى النهاية يحدث بينهما الفراق •

والمغزى الواضح : كيف يمكن ان يكون الكاتب مستقلا عن الحاكم •• وان يكون من الواضح من هو التابع ومن هو المتبوع ••

---

(١٥) المرجع السابق ص ١٠٨ •

ومما يوضح أن الرؤية التعادلية واكبت أولى مراحل الازدهار الأدبى عند توفيق الحكيم ، وفى فترة مبكرة من ابداعه ·· هو أن الاتجاه التعادلى سيطر على رواياته الأولى والتى جاءت عملاقة ·· اقصد بذلك « عودة الروح » و « يوميات نائب فى الأرياف » ، ثم « عصفور من الشرق »(١٦) ·

وكما سبق وأن اكدت ان أفكار التعادلية جميعها موضوع يغرى على البحث عنه فى أدب الحكيم ، ولايقتصر أمر البحث على قوة التعبير وقوة التفسير وتعادل القوتين « فى الأثر الأدبى أو الفنى » ولعل ما سقنا من نماذج وما حرصنا على أن تضمنه هذه الدراسة من نصوص أعماله الأدبية ·· جاء بهدف رصد (التعبير) بما هو عليه من قوة ، واجتهدنا فى التفسير انطلاقا من التعادلية على شمولها · ونجد الحكيم يوضح أبعاد التعادلية فى تلك الروايات الثلاث عندما يقول :

« ·· ولكنى اردت ان أتخذ من الأسلوب خادما لأهداف أخرى غير مجرد الامتاع ·· هذه الأهداف ـ كما ظهرت واضحة للناس ـ كانت قومية وشعبية اوصلاحية فى «عودة الروح » وفى « عصفور من الشرق » وفى « يوميا نائب فى الأرياف » وفى « مسرح المجتمع » ·· الخ ·· » ··

ويضيف الحكيم : « فأنا فى الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط بل لافسر · ولقد كان من الممكن أن تكون عوة الروح

---

(١٦) الرواية الأولى صدرت سنة ١٩٣٣ ، والثانية ١٩٣٧ ، والثالثة ١٩٣٨ م ·

مثلا مجرد قصة تصور الحياة فى حى السيدة زينب بين اسرة متواضعة ، وتخلق أشـــخاصا نابضين بالحياة ، يعيشون فى صميم بيئتهم وفى هذا الكفاية من حيث الفن ٠٠ لأن خلق الحياة هو عمل فى الفن كاف ٠٠ ولكنى ألزمت نفسى بتفسير خاص للروح المصرية ، فلم تنته القصة عند حد التعبير والتصوير لبيئة وأشخاص ، بل اتخذت موقفا ينم عن رأى معين ٠ » (١٧) ٠

وفى موقع آخر من كتابه التعادلية جاء « التفسير اذن فى الأثر الأدبى أو الفن هو مناط المسئولية ٠٠ لانه هو الرأى ، وهو الموقف ٠٠ ومادام هناك رأى ، هناك التزام به ، ومسئولية عنه ٠

أما التعبير فهو حر طليق كالحياة نفسها ، مالم يقيد نفسه كما قلنا بالمغالاة فى الشكل فينحرف الى الفن للفن أو يحبس نفسه فى مضمون دائم معين بالذات فيصبح شأنه شأن الفن الملتزم » (١٨) ٠

وهذا يوضح لنا فكرة الالتزام فى الأدب ــ فى منظور التعادلية ــ أو مايقرنه الحكيم بالتعبير والتفسير وتعادل قوتيهما معا ٠٠

والأفكار التعالدية جميعها تغرى على البحث عنها فى أدب الحكيم ٠٠ ومن ذلك تلك المحاولة والا يقتصر الأمر ــ فقط ــ على الجانب الخاص بقوة التعبير وقوة التصوير وتعادل القوتين ٠٠

---

(١٧) التعادلية ص ٨٦ ، ٨٧ ٠

(١٨) المرجع السابق ص ٩٢ ٠

مقاومـــة الابتلاعيـــة

مقاومــة الابتلاعيــة

وكما حدد لنا الحكيم مفهوم التعادلية ·· مضينا مع هذا الفهم المستخلص ، لتفســـير ابداعه الأدبى ، ومدى مصداقيته على ذلك الابداع ··

الا أن توفيق الحكيم ، لا يترك فلسفته هذه . أو منهجه الفكرى الذى ارتضاه مذهبا ترى منه أعماله وتنطلق من خلال آرائه وأفكاره ·· دون أن يبين ردود الفعل ، اذا وقع الخلل بين أحد الأطراف المتقـــابلة ·· أو بين قوتين خرجت احداهما على ناموس التعادلية ··

يقول الحكيم « التعادلية هى مقاومة الابتلاع ·· »

اذ كان لديك ضعف ونقص ، فابحث جيدا فى أنحاء نفسك ، فستـــجد فيها قوة خفية معـــادلة وزيادة كامنة مقابلة ··

عادل وجودك كما فعلت ارضك ازاء شمسك ··

وازن نفسك تجاه القوى المواجهة · ·والا ابتلعتك فى جوفها ، وأصبحت لها وقودا وطعاما ·· وصرت عدما ·

هكذا تقول التعادلية ..

كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها .. ففى المجـــال السياسى والاجتماعى مثلا الرأسمالية أرادت ابتلاع العمل .. الاستعمار يريد ابتلاع الشعوب .. الطبقة القوية تريد ابتلاع الأمة كلها ..

الغرب يريد ابتلاع الشرق .. الخ ..

التعادلية هى فلسفة القوة المقابلة والحركة المقاومة للابتلاعية ..(١) .

هذا هو المذهب من منظور الابتـــلاعية أو المنهج كما أبدعه فكر الحكيم .. لكن تتبقى أمامنا مسألة التعادلية من وجهها الذى يوازن بين « قوة التعبير » و «قوة التفسير» من جهة ، ويكون الموضوع أصلا مستمدا روحه من صميم التعادلية من جهة أخرى ..

وهذا بلا شك مما يجعلنا نواصل الرصد والتحليل .. من خلال النماذج الابداعية عند توفيق الحكيم ..

فاذا مضينا مع بعض نماذجه الأدبية حسبما تسلسل زمن ظهورها .. فسنجد أن « عودة الروح » بكل مافيها من حشد للافكار والأشـــخاص والأماكن ، تمثل قمة أعمال الحكيم ، التى جاءت لتعلن أن هذه الأمة تسعى لكســـر اغلالها . بما تنفحه من روح وطنية ، وتأكيد على ضرورة التطور السريع ، لتتحقق الانطلاقة لهذا الشعب ، وكيف تسعى الطبقة الوسطى من خلال أسرة تنتمى لهذه الشريحة

---

(١) التعادلية ص ١٢٠ .

•• ولولا هذا الدفع من خلال هذا النموذج ، لظل الجسد بلا روح •• اسير قوة سلبية مسيطرة •• مبتلعة له ولذلك فان شـــعار « الكل فى الواحد » الذى انطلق عبر هذه الرواية •• هو ما يحتاج الى وقفة ، لأنه سبيل الى تحقيق التوازن بالمعنى التعادلى • فالكل على رغم الاختـــلاف الظاهرى •• يمكن أن يتساند •• أن يتوازن مع غيره ، حتى يصبح هذا الغير وان كان هو الواحد « الرمز » سواء كان الزعامة ، أو حتى ليكن عند البعض الوطن •• فهو الأصل والانتماء ، حيث يتلاقى عند الهدف الموحد ، ان التلاحم بمثابة قوى متوحدة انســانيا فى مواجهة القوى الأخرى الابتلاعية •• متمثلة فى الاستعمار •• ومن ثم تتحقق الحرية والسيادة •• هذا تفسير مكانى للكل فى واحد ، الذى يفوق الأرض ويفوق زعامة الفرد •

وتستوقفنا الرؤية التعادلية فى رواية عصفور من الشرق ، أن محسن ــ بطلها ــ يفسر سلوك الأمريكان ، من منطلق مادى بحت ، ولذلك فهو يقول : « يخيل لى يا اندرية ان هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمنت المسلح : لا روح فيهم ولا ذوق ، ولا ماضى •• واذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت فى موضع القلب دولارا(٢) •

اذن فيمكن أن تستخلص من مفهوم عصفور من الشرق. الذى تردد كثيرا من خلال هذه الرواية ، مايعنى أن محسن جاء محملا بكل أفكار الشرق وحضارته •• ان هذا الحشد العقلى والنفسى لتراث الشرق هو بمثابة القوى المعادلة

---

(٢) عصفور من الشرق ص ٤٥ •

لوجوده فى مناخ الغرب ، وتحت سطوة وجبروت حضارته المادية ٠٠ انها وسائل دفاعه ضد الابتلاعية ٠٠ بل ان صديقه « ايفان » ذلك الروسى الذى كفر بـ « ماركس » وكل أفكار الشيوعية ، وافتقد مادية الغرب ، لم ير مخرجا لهذه الابتلاعية غير النزوح - وهو يكاد يحتضر - الى بلاد الشرق ٠٠ يقول « ايفان » : « سنذهب الى الشرق ، أريد أن أرى جبل الزيتون ، وان أشرب من ماء النيل ، وماء الفرات ، وماء زمزم ٠٠ »(٣) ٠

بل والروح تكاد تغادره يواصل « ايفان » وهو يضع يده على كتف محسن المطرق الساهم :

- ٠٠ هلم الى النبع ٠٠ الى النبع ٠٠ الى هناك ٠٠ الى هناك ٠٠(٤) ٠

ويواصل الحكيم تأكيد رؤيته التعادلية نحو التحرر فجاء فى مجموعته القصصية « سلطان الظلام » :

« أول خطوة فى طريق التحرر من سلطان الظلام هى القضاء النهائى على رغبة القوى فى الوثوب على الضعيف » ٠

ويقول مؤكدا « ان الصائغ الذى يريد أن يلحم ذهبا بنحاس ليس أقل تزييفا من أولئك الذين أرادوا أن يلحموا « الاشتراكية » بـ « الوطنية » ٠٠(٥) ٠

---

(٣) المرجع السابق ص ١٨٧ ٠
(٤) المرجع السابق ص ٢٠١ ٠
(٥) سلطان الظلام ٠ التمهيد ص ٥٠ ٠

لكن هل تفشل محاولات التعادل بين الفكر والعمل ، بين المفكر والحكم ، بين العقل والعاطفة ، بين الفيلسوف والمرأة ·· ؟؟

وتستوقفنى قصته القصيرة « فى النوم »(٦) حيث جاء :

« رأيت أنى معها فى حجرة واحدة ·· أما هى فغادة حسناء · ذلك النوع من الحسن الذى احبه · ولست أدرى كيف عرف الحلم ذوقى فاختار هذه المرأة ··

جلسنا معا وهى فى ثوب أخضر خفيف وكان بيننا حبا قديما · وما كادا يشعران بالسعادة حتى اتى الزوج واضطرب الفيلسوف وخرج من الحجرة يحمل حذاءه ، وراحت تعدل من شأنها ·· الخ ·· ولكنه (أى الزوج) هدأ منه (!!) ·· وخرجت (المرأة) ليخبرها انه أصبح مليونيرا فظلت تعانقه ولا تلتفت قط الى الفيلسوف ··

كيف تبتلع المادة السلطة من الفكر ·· وكيف يصبح الفكر عاجزا ؟ صحيح أن العلاقة شرعية بين المرأة والزوج، لكنه دائما يستطيع أن يسلبها اختيارها الحقيقى الأصول (فالحب قديم بينها وبين الفيلسوف وسابق على الزواج).

وعندما يتلاشى التوازن من حياة الانسان ينعزل عن مواجهة المعركة بين الخير والشر ، وهذا ما نلمحه فى حليات قصته « طريد الفردوس »(٧) :

---

(٦) نشرت ضمن مجموعته القصصية « عهد الشيطان » ط ١ . صدرت عام ١٩٣٩ م .

(٧) نشرت ضمن مجموعة « قصص توفيق الحكيم » . المجموعة الأولى . صدرت سنة ١٩٤٩ م .

«رجل ولد بعينين فى رأسه ، ولكنه لم ير بهما غير السماء ٠٠ »

لقد بنى له ضريح صار مصدر التبرك ٠٠ ولكن رغم ذلك ، كان ضحية الابتلاعية ، لأنه لم يحارب الشر قط ٠٠ لم يدخل تجربة المواجهة ، « نعم ٠٠ لقد مت حقا ٠٠ وأردت أن أدخل الفردوس ولكنهم طردونى ٠٠ »

« أنى فى نظرهم » يقصد ملائكة الجنة « غشـــاشا مخادعا ٠ لجأ الى أيسر السبل لينال جائزة دون أن يواجه الخطر ! » ٠٠

وفى قصته « ابليس ينتصر »(٨) ٠ يبدى بوضوح رائع كيف يتمكن « الشر من ابتلاع الخير » ٠٠

وهاهو موجزها : قوم يعبدون شجرة ، فحاول الناسك قطعها ، فيتصدى له ابليس ، ولكن الناسك ينتصر عليه فى المعركة ٠ ويذهب ليستريح وعندما توجه فى اليوم التالى لقطعها ، يبرز له ابليس وتتكرر المعركة وانتصار الناسك ، وعودته للاستراحة ، ثم عودته لمحاولة قطع الشجرة ٠٠ وفكر ابليس فى عدم منازلة الناسك : فليس أقوى من رجل يقاتل من أجل فكر أو عقيدة « واستطاع أن يعرض دينارين على الناسك لينصرف عنهذا الشأن ٠ ووافق الناسك ٠٠ فلما لم يف له ٠ عاد ليعاركه ، وهنا صـــرعه الشيطان قائلا : « لما غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك ، لما قاتلت لعقيدتك صرعتنى ، ولما قاتلت لمنفعتك صرعتك ٠ »

---

(٨) نشرت ضمن مجموعة « قصص توفيق الحكيم » ٠ المجموعة الثانية صدرت سنة ١٩٤٩ م ٠

ويقدم الحكيم مثلا للابتلاعية من منطلق آخر تماما ·

ماذا عندما ينتصر العلم « ويصبح سلطانه مطلقا على الحياة ؟ ·· وبذلك يذوب العملَ فى صولجانه ؟ ··

ترى ماذا يكون عليه حال الانسان ؟ ·· عندما يخرج على ناموس الحياة ·· وحكمة الخالق ·· عندما تسيطر عليه الفكرة الواحدة التى تلغى التوازن والتقابل ·

ونستنبط هذه الرؤية من خلال قصة الحكيم « فى سنة مليون » والتى استهلها قائلا : « وضعت هذه القصة فى سنة مليون ميلادية ·· فى ذلك الزمن صارت الدنيا الى وضع يتعذر على الخيال تصوره ·· فلقد اختفت الحروب ، وانقرض المرض ، ومحى الموت »(٩) ·

عالم لا شيخوخة فيه ولاشباب ، لا ماضى ولا مستقبل ·· لا تزاوج . فالمعامل تقوم بدور اكثار الجنس البشرى ، بعد ان جهز العلم بكتريا النسل الآدمى فى معاملة ··· المرأة فقدت مميزاتها وصفاتها الجنسية تتخاطب بصيغة المذكرة · وعندما يخرج أحد علماء ذلك الزمن على هذا الواقع مطالبا بتحطيم آلات العلم واستعباده لروح الانسان (أى ابتلاعه لها) · تعرض للقهر والاعدام ·· !.

---

(٩) نشرت ضمن المجموعة القصصية « أرنى الله » · ص ٧٨ · صدرت سنة ١٩٥٣ م ·

ولكن ٠٠ تنجح دعوته ويصبح له اتباع رافضين ، ومرت الآلاف من السنين فظهر الموت « وبظهوره ظهر الخوف ، ثم غريزة المحافظة على النوع ، ولما كانت معامل النسل قد زالت دولتها ، فقد نشطت الطبيعة فى الاجسام رغبة الجنس ، وعندئذ بدا النوع البشرى يتفرع من جديد الى ذكر وانثى ٠٠ وظهر الحب وبظهوره ظهر « الفن » و « الشعر » ٠٠

وهكذا حكمت الطبيعة بالهها الأكبر الأرض مرة اخرى وعادت الأديان السماوية ، وعاد الشعراء ينشدون ويقولون :

« ايها الخالق الازلى ٠٠ لك أنت وحدك الخلود والجبروت ، اما نحن فلا نريد أن نكون سوى بشر لنا جسم مرتو ، وقلب منقد ، وعقل متئد ٠٠

ايتها الطبيعة الرحيمة ٠٠ لك انت وحدك عمر الأبد ٠٠ اما نحن فلا نرى غير الندى ٠٠ نهبط من السماء عند الفجر ٠٠ ونصعد الى السماء عند الضحى ٠٠٠ »(١٠) ٠

ويقودنا الحكيم الى اصل الابتلاعية ، الذى يمكن ان يكون كائنا فى داخل الانسان منذ بدء خليقته ٠٠ لأن القوتين المتناقضتين أصيلتين فيه ٠ ففى قصته « من هى حواء » جاء :

---

(١٠) المرجع السابق ص ٩٦ ، ٩٧ ٠

ابن آدم يحمل جزءا من الله « فان روحه فى آدم » وجزءا من الشيطان (قاصدا سيطرة ابليس على حواء) ، ومن ثم فان آدم وحواء أكلا من الشجرة المحرمة وامتزجا وطردا من الجنة « وهى تحمل ابنهمـــا الجنين الأول ، وتكاثرت الذرية وتعددت النسخ التى نصفها من صنع الاله والثانى من فعل الشيطان وعرف الشر على الأرض[11] . هنا أصل القوة الابتلاعية داخل الانسان .. واصبح قدرا عليه أن يقاوم ما فى داخله من دوافع ابتلاعية ..

---

(11) « من هى حواء » قصة قصيرة ، نشرت ضمن كتـــاب « راهب بين النساء » .

الشخصيــة التعادليــة

● نحو شخصية تعادلية

الشخصية التعادلية

« بغير الغير لا يوجد وجود » ••

هذه المقولة هى لب القضية فى النظر الى الشخصية بمنظار التعادلية ••

وعندما نمضى مع « التعادلية » ، نجد ان توفيق الحكيم قد أفرد مكانا فى مذهبه لما يمكن لنا ان نطلق عليه الشخصية التعادلية ، وكنا فى مستهل هذه الاطلالة على عالم التعادلية ، قد تساءلنا عن مدى استيعاب ابداع توفيق الحكيم ، لما يمكن تسميته بـ « الشخصية التعادلية •• بل لا أعتقد اننى قد ذهبت بالتساؤل بعيدا •• عندما اشتمل على استقصاء التعادلية فى شخصية الحكيم ذاته ••

ولعل من الأنسب ، قبل المضى بحثا وراء هذه الشخصية التعادلية فى أدب توفيق الحكيم •• أن نرصد الخصائص المميزة للسمات التى ينبغى أن تكون عليها هذه الشخصية ومدى امكانية استلهامها على ضوء التعادلية وما يجب أن تتميز به • لأن الحكيم عندما أراد أن يجعل التعادلية فى خطوط عريضة لم يفصلها عن كينونة التعادلى

فى اطار الماهية التعادلية ، ولذلك فقد ابرز هذه الخطوط فى خمسة مبادىء غير مجردة من هذا الارتباط ..

يقول الحكيم(١) :

● انت تعادلى اذا كنت تعتقد : الوجود هو التعادل مع الغير .. الأرض لا تكون بغير تعادلها مع الشمس .. لا يوجد مخلوق وحده .. كل كائن ، وكل صفه ، وكل حالة ، وكل وضع لا يوجد فى عالم المحسوسات ، ولا فى عالم المعانى : الا بالنسبة الى غيره .. لابد من غيرك لتكون انت .. التعادلية اذن تقوم على الغيرية .. والوجود التعادلى يتلخص فى هذه العبارة :

« بغير الغير لا يوجد وجود » ..

● انت تعادلى اذا كنت تعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل ، وان مسئولية « الفكر » هى حريته واستقلاله تجاه العمل » ..

● أنت تعادلى اذا اعتقدت أن الخير والشر وضعان للانسان .. وان الخير يجب أن يعادل ويوازن الشر ، وأن جزاء الشر ليس الاقتصاص من حرية الشخص .. لأنه موازنة بين الشر والحرية ، اذ لا علاقة البتة بينهما ..

انما العلاقة هى بين الشر والخير .. فالجزاء اذن هو عمل خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر . كما ان الضعف والنقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى

---

(١) التعادلية الصفحات : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

معوضة معادلة . على الانسان أن يستخرجها من مكامنها في نفسه ..

● أنت تعادلي اذا كنت تعتقد أن العقل بمنطقه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وايمانه : أي أن الشك يمكن أن يعيش مستقلا موازنا للايمان ..

● انت تعادلي اذا كنت ترى ان الأثر الأدبي أو الفني يجب ان يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير » ..

وبرغم ما تضمنته هذه المقولات من الأفكار العامة والخطوط العريضة للتعادلية .. فقد ربطها الحكيم بكل من يمكن أن يذهب مذهبه ويرى رأيه في « التعادلية » ..

.. ونمضي مع التعادلية بحثا في ميادينها الحياتية، عما اتفقنا أن نطلق عليه الشخصية التعادلية .

وبداية ارى ان تعادلية الشخصية ، أو الشخصية التعادلية .. أو ما يمكن أن يصدق عليها هذا المفهوم ، هي التي تصبح فيها التعادلية كينونة الداخل .. أى انها شخصية متعادلة مع ذاتها ، أو التعادلية في الخارج .. أى متعادلة مع غيرها ..

ولكي يستقر ادراك ما نرمي اليه .. سنعود الى ايضاح ان التعادل مع الذات مصدره مكونات الشخصية التي تسمها بالتوازن ولنقل أنها التي فيها يغلب خير الانسان شره ، والتعادل مع الغير هو ما تحققه مجموعة مكونات

الشـــخصية من قوة مقـــابلة تواجه به قوة أخرى فى الخارج ·· ولنقـــل هى أنها تلك التى تواجه الانســـان بخيره شر غيره ·· ومن هذه الفئة الشخصية المصلحة لغيرها ·

واذا عدنا الى مقولة : انك بغير الغير لا تكون ·· فهى وماسبقها مقدمة لابد منها لاستيعاب الشخصية التعادلية التى نحاول رصدها فى « التعادلية » ··

يقول توفيق الحكيم : « وخلق الله آدم واحدا صحيحا · فكان وجوده سلبيا · فصنع منه اثنين ·· (يقصد من ضلعه) ووجد آدم وحواء · وعندئذ اتخذ الوجود حركته الايجابية »(٢) ·

فالشخصية المحققة لذاتها « هى التى تكون ذات ادارك أكثر فاعلية للواقع ، وعلاقات مريحة معه ، وعندها التقبل للذات وللآخـــرين وللطبيعة ·· كما تتمتع بالتلقائية فى الحياة الداخلية والافكار والدوافع ، كما تمتلك قدرة خارج النفس ، والشعور بأنها صاحبة رسالة فى الحياة(٣) ·

والشخصية المحققة لذاتها ·· هى الشـــخصية التى تعمل بكل طاقاتها ، وسمات الاخيرة : ان يكون الشخص متفتحا ومقبلا لخبرته مهما كان نوعها ، أى أن الفرد لا ينكر ولا يشوه أى ادراك حى أو ذكرى انطباعات · كما أن هذا الشخص يعيش بشكل وجودى (واصطلاح وجودى يرمز

---

(٢) المرجع السابق ص ١١٨ ·

(٣) الشخصية · تأليف : سدنى م · جورارد · ترجمة د· حسن الفقى ود· سيد خير الله ·

الى القناعة الذاتية بان « كل لحظة فى الخير تعنى شيئا جديدا »

كما يجد هذا الشـــخص فى تركيبه العضوى وسيلة وثيقة للوصول الى الســلوك الأكثر اشــباعا فى كل موقف وجودى(٤) ٠

والحكيم لم يغفل فى « تعادليته » ان يربط بين الفكر والشعور فى شخصية الانسان المتعادلة ٠٠ حيث يرى : « الحياة الروحية الســليمة هى أيضا تعادل بين الفكر والشعور » و ، ما يطلق عليه وصــف الأمراض العقلية والعصبية ماهو الا اختلال فى هذا التعادل أما يتضـــخم الشعور تضخما يلغى الى جانبه أو يعطل مهمة الفكر ٠ فيرتد الانسان طفلا فى أعوامه الأولى ٠٠ واما ان يطغى الفـــكر ويكبت الشـــــعور ، فترتبك أداة الادراك فى الانسان »(٥) ٠

وعلم النفس يؤكد على عالم السلوك عند الانسان ، فى بواعثه الخفية فى الظاهر ، فقد اصطلحت المدارس الحديثة فى علم النفس على تســميته بـ « ســمات الاستجابة الشخصية »(٦) ، أى انشاء سمة الاستجابة الشخصية التى تعارض ميلا شعوريا قويا ، ومن امثلته تنمية سمة التعاطف أو اخفاء العدوانية ، ولايضاح اكثر يقول المؤلفان : فنتيجة

---

(٤) المرجع السابق ٠

(٥) التعادلية ص ١٣ ٠

(٦) سيكولوجية الفرد فى المجتمع : تأليف ، كريتشى ـ كريتشى فيلد ، بلانش ، ترجمة د. حسن الفقى ، د. سيد خير الله ٠

لكبت الرغبات المحيطة ، ونتيجة لأنواع القلق الناتج عن ذلك ، فان الفرد يقوم بسلوك هو فى الواقع غير المراد تحقيقه ، ويعــرف باســم تكوين « الفعل المضــاد » «Reaction formation» ثم يقولان : « والفرد الذى لديه قدر كبير من الكراهية قد يبدى نتيجة لتكوين « رد الفعل المضــاد » استجابة شــخصية تدل على سمة الود والتعاطف المتزايد » .

فاذا كان ذلك كذلك .. فان الشخصية التعادلية قد أصبحت جديرة بأن نتلمس وجودها فى أدب الحكيم وأبعاد السمات التى ندرجها فى خانة شخصية تعادلية .. لان فى ذلك نوعا من اضفاء الثقة فى قدرة هذا المذهب على تفسير أدب صاحبه ، خاصة وقد سبق أن أعلن توفيق الحكيم أنه لايرى لأدبه تفسيرا خارج التعادلية ..

نحـــو شـــخصية تعـــادلية

وفى « التعادلية » ما يمكن استلهامه ، لمنطلق يبين النهج الذى يمكن من ايجـاد الشـــخصية التعـــادلية ، واســـتمرارية وجودها ، يقول توفيق الحكيم : « احتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة ، لتعادل بها وتقابل القوى الأخرى التى تريد أن تبتلعك .. بذلك تقاوم وتتحـــرك وتحيا » ..

وهو لا يغفل أن النفس القوية ، ليست القاعدة فى الانسان .. بل يضع التفاوت والضعف نصب عينيه ويجد فى التعادلية مايناسبها ، فيقول : « اذا كان لديك ضعف

ونقص فابحث جيدا فى انحاء نفسك فستجد فيها قوة خفية معادلة وزيادة كامنة ·· »

وهو فى هذا وذاك يستلهم الحكمة فى تلك الرؤية من الكون ·· انه ينظر فى خلق السموات والأرض ، ويجد انها النافذة التى يمكن أن ينطلق منها عقل الانسان ليتبصر وينزع نزوعا ايجابيا ··

ويضيف كذلك : « عادل وجودك كما فعلت أرضك ازاء الشمس ·· وازن نفسك تجاه القوى المواجهة والا ابتلعتك في جوفها ، وأصبحت لها وقودا وطعاما وصرت عدما ·· »

واذا كان ماسبق رصده ، قد ابتنى على اساس فكرى أفرزته « التعادلية » ·· الا أن الحكيم لم يغب عنه أن يورد فى كتابه « التعادلية والاسلام » أصولا ومنطلقا دينيا اسلاميا ، ويمكن لنا أن نستشرف منه معانى الشخصية التعادلية ، أو ما يستحث به على التوجه نحو التعادلية ·· بمعنى التوازن عندما كتب : « قال تعالى : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » · واستغناه الانسان يحدث عندما يمتلك القوة فى صورة مال وصحة وعلم · وتاريخ الانسان يدل على أنه كلما ظفر بالقوة ، ولو فى عنصر من عناصرها ضعف اهتمامه بالدين والخالق »(٧) ·

ويورد توفيق الحكيم صورة اسلامية ثانية ، يمكن من خلالها ابراز معنى عميق لما ينبغى أن تكون عليه الشخصية التعادلية : « وقد وضع الاسلام عبادة الله فى المنزلة العليا ،

---

(٧) التعادلية والاسلام ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩١ ·

ومع ذلك لم يجعل هذه المنزلة تطغى على منزلة العمل ، فقد مر يوما رسول الله (صلعم) « وقيل عمر » برجل ناسك انقطع لعبادة الله ، لا يعمل شيئا غير العبادة ، فسأله عمن يطعمه ، فأجاب أن أخاه هو الذي يعمل ويطعمه ، أما هو فليس له عمل فقال له : « أخوك الذي يعمل ويطعمك ! .. أخوك أعبد منك .. »(٨) ..

والشخصية التعادلية ، أو التعادلية في الشخصية .. يمكن النظر اليها نظرة تقييم من زاوية « الرأى الآخر » ..

وهذا ما يمكن رصده من منظور اسلامى .. فقد كتب توفيق الحكيم :

« كذلك علمنا الاسلام أن تكون المجادلة بما هو أحسن، وعند عدم التلاقى فى الرأى يكون « لكم دينكم ولى دين »، وهذا أيضا ضمان لعدم طغيان رأى الى حد ابادة رأى آخر . »(٩) .

* * *

(٨) المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٩) المرجع السابق ص ١٧٩ .

ـ الباب الثـــانى

الشخصـــية التعادلية

في أدب الحكيم

الشخصية التعادلية فى أدب الحكيم

ان الشخصية التعادلية هى النموذج الذى يمكن من خلاله أن نتعرف على « التعادلية » فالشخصية النمط أو النموذج لابد أن يصدق عليها مفهوم هذا المذهب ، الذى ارتكز على مناهل فكرية أضفاها الحكيم بل انه قد أسبغها بالكثير ما نظره على ضوء التعادلية والاسلام · والتعادلية كما أسلفنا فى معرض المناقشة للشخصية التعادلية ، فان لهذه الشخصية من السمات مايميزها ·· بل أن الحكيم قد ابرز معالمها من خلال خمسة مبادىء ثابتة ·· (١) ·

وعلى ذلك فان أدب الحكيم يصبح الميدان الأنسب لرصد الشخصية التعادلية من خلال الشخوص فى قصصه ورواياته ومسرحياته ·· ومن ثم فوقفة رصد وتمحيص لكتاب التعادلية نجد أن الحكيم قد ضمنه اشارة أو أكثر لما يمكن لنا أن نستدل به على أن الشخصية التعادلية فى ادبه كمجال بحث ليس فيه شىء من التعسف أو التزيد أو

---

(١) راجع الشخصية التعادلية · من هذا الكتاب ·

افتراض ماليس بكائن · يقول توفيق الحكيم : « فالانسان يواجه الغير أو القوى المقابلة عندما تكون نواميس لكنه عاجز عن تخطيها وتحطيمها ··

ان من يمعن النظر فى هذه المسرحيات « يقصد أهل الكهف » و « الملك أوديب » وغيرهما ، يجد مشلينيا « فى أهل الكهف » يحاول ذلك ، ويمكث ويكافح ليقنع «بريسكا» يتجاهل عقبة الزمن ··

ونجد شهريار « يعمل على تحدى النواميس بمحاولة تحطيم بشريته ·· ونجد « سليمان » يحاول تحدى قانون الحب واقتحام قلب بلقيس » « وأوديب » أراد تحدى المجتمع والبقاء مع أمه زوجة ·· « وبجماليون » أراد تحـــدى المجتمع وتحطيم التمثال الذى أفسدوا فنه بما نفخوه هم فيه من روحهم ·· جميع هؤلاء الأشخاص لم يستسلموا لمصيرهم الا بعد التحدى والنضال والكفاح ·· ولقد أرغموا ارغاما على التسليم فى آخر الامر لأن القوى المسيطرة ليست من صنع البشر ·· ولكن يبقى الكفاح ــ ولو ضد المستحيل ــ وهو وحده واجب البشرية(٢) ·

ان هذه الاشارات من الحكيم فى أمر هذه الشخصيات ومواقفها الفكرية المحضة فى تحديها للقوانين والنواميس أمور تدفعنا الى التمعن فى طبيعة الشـــــخصيات التى احتشـــدت بها مئات من الأعمال الأدبية قد أبدعها توفيق الحكيم ورصدها فى اطار ذلك المذهب ··

---

(٢) التعادلية ص ٩١ ·

وبداية عندما أقف أمام رواية « عودة الروح » ، فانه لايمكن لى أن اتجاوز التعبير الذى حملته الصفحة الأولى من الكتاب ، وتحت العنوان مباشرة ، وهو :

« عندما يصير الزمن الى خلود »

« سوف نراك من جديد »

« لأنك صائر الى هناك »

« حيث الكل فى واحد »

« نشيد الموتى »

ونحن بصدد رصد ملامح الشخصية التعادلية فى هذه الرواية الحدث فى فن الرواية العربية ، لا يمكن ان نغفل هذه المعانى ، التى استقاها توفيق الحكيم من التراث الفرعونى . فالكل فى واحد ـ مع تأكيد اختلافى مع كلا التفسيرين اللذين ارتآهما المفسرون والنقاد لهذه المقولة بأن « الكل فى واحد » يعنى الوطن أو فى الزعيم وهذا تفسير خضع لأفكار اما تأثرية بقضية الأرض .. أى المادة ـ التى فى رأى اتجاه مرفوض ـ قد سبقت الفكرة ، أو بعض مطلقى البخور فى بلاط السلطان ورأوا فيه ارضاء للنزعة الفردية الدكتاتورية ثم رجحوا التفسير الآخير ..

وفى معتقدى أن هذا التفسير من هؤلاء يتناقض مع رأى الحكيم الذى فصله سواء فى كتاب « التعادلية » أو فى مواقع أخرى من كتبه حول العمل ، أو الحكم ، أو الحاكم .. وهو رافض أن يكون أمره مطلقا .. وماعداه تابعا له بما فى ذلك الفكر أو المفكر ..

وأرى ان الشــــخصية الجماعية هناهـ ى فى الموقف الانسانى الشامل ، فالانسان قبل الأرض ، العقل قبل المادة ·· والفكرة سبقها الوجود المادى بلا نزاع او خلاف ·· كذلك أمر الروح ··

من هذه الرؤية وذلك التفسير أرى ان تعادلية الشخوص المحورية فى « عودة الروح » ، قد تحققت فى موقف انسانى موحد عندما أجمع الكل على مؤازرة المصاب والفدح الكبير الذى أصاب الجميع فى « سـنية » وصـــاروا برغم ما كان من تقابل سمات تلك الشخصيات ، اذا بالجميع يلتقون عند نقطة واحدة ·· عندها يحدث التعادل ·· ويصبح الجميع : « زنوبة » ، « حنفى » ، « سليم » ، « وعبده » ، « ومبروك » هم المشاركة فى المعاناة للواحد أى لـ «محسن» بل يرى محسن ذاته فى كل هؤلاء ·· ان مأساته صارت معاناتهم وقضيته الشاغلة صارت قضيتهم « وكان محسن يشاهد ما جرى أمامه ، فى ابتسام وسرور داخلى لعبارة « معانا منديلها » (أى منديل سنية الذى جعله الحكيم قضية رئيسية للعواطف وغير العواطف فى هذه الرواية ، و « قالت لنا تعالوا » الخ ·· الخ ، مؤثرا لفظه « نحن » التى حلت محل لفظة « أنا » · مرتاحا الى أن ماله شخصيا أصبح ملكا للجميع ، حتى أنه بات يدخل عليهم الراحة والاغتباط أجمعين ·· وأحس منذ تلك اللحظة أنه مسئول عن هناء هذا الشعب » ، وانه يجرؤ الآن على كل شىء من أجلهم ، وأنه لن يحرمهم بعد الآن أى شىء مما يخص به

---

(٣) عوده الروح • الجزء الثانى الفصل العشرون · ص ١٩٨ ·

نفسه ، ورضى أن يذهب لمقابلة « سنية » علة يأتى بنتيجه يفرح بها « الشعب »(٣) .

ان الشخصية التعادلية فى عودة الروح ، هى الشخصية التى يفنى فيها الجميع من أجل روح الانسانية الخالدة . وليس أدل على هذه الرؤية مما شمله «التمهيد» لتلك الرواية ، فمما جاء فيه : « وقف الطبيب لحظة يتأمل المرضى الراقدين صفا .. وفى النهاية تقدم وهو يقول :

ـ لا .. دا مش .. دا مستشفى ..

ثم فحصهم ، الواحد بعد الآخر ، وفرغ من عمله وهم بالانصراف ، ولكنه عاد فنظر اليهم من جديد فى شىء من العجب ، وهم محشورون فى تلك الحجرة .. ما يحملهم على هذا الحشر ، وفى الشقة غرف أخرى حجرة الاستقبال على الأقل ؟ .. وسألهم فى ذلك فأجابه صوت ارتفع من أعماق السرير :

ـ مبسوطين كده ..

لفظت هذه العبارة بلهجة ساذجة صادقة ، بل عميقة .. يدرك المتمعن فيهاسرورا داخليا بهذه المعيشة المشتركة، ولو استطاع أحد لقرأ على وجوههم الباهتة ، ضوء سعادة خفية بمرضهم معا ، خاضعين لحكم واحد ، يعطون عين الدواء ، ويطعمون عين الطعام ، ويكون لهم عين الحظ والنصيب ..(٤) .

---

(٤) المرجع السابق ص ٩ ، ١٠ .

ومثلما شاء الحكيم ليؤكد هذا التوحد الذى بدأ به الرواية ·· أيضا انتهت بنفس المعنى مع تغيير المكان ، فبدلا من عنبر فى البيت ، ففى هذه المرة كانت المستشفى بعد أن تم نقل الجميع من سجن المناضلين ضد الاحتلال ، الى المستشفى ود خل الطبيب العنبر (أنه نفس الطبيب) فوقع نظره على « الشعب » ، راقدين الواحد تلو الآخر ·· وتبين السحن والوجوه فاذا هو يذكرهم ، ويذكر عنبر منزلهم ، فوقف دهشا لحظة ثم صاح مبتسما :

ـ هو أنتم ؟؟ · وبرده هنا كمان جنب بعضكم ؟ ·· الواحد جنب أخوه ؟؟ ··(٥) ·

وان سمات التعادلية فى « عصفور من الشرق » يمكن لنا أن نرصدها ، بداية من خلال العنوان لهذه الرواية ومصدره ومغزاه ·· فعندما نتأمل تلك السطور من الرواية حيث محسن وهو يحاور صديقه الفرنسى « أندرية » ندرك الكثير ··

ـ تأكل بلحا ؟ ··

ـ نعم ·· وفى شوارع باريس ··

ـ آه أيها العصفور القادم من الشرق ··

ـ فى مصر نسميه « عجوة » · · هذا النوع من البلح » انى أتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب ·· وأتخيل هذه النافورة ·· ذلك السبيل « بنوافذه ذات القضبان النحاسية ·· »(٦) · ان شخصية

---

(٥) المرجع السابق ص ٣٦٢ ·

(٦) عصفور من الشرق · ص ٢٠ ·

« محسن » فى الموقف الخاطف ، تجمع بين مكانين وثقافتين وحضارتين مختلفتين متقابلتين ، ولكنهما فى داخله يبرزان عنده السلوك المتعادل ، الذى لا يجعل الغرب يطغى على شرقيته . وكذلك فان هذه الشخصية فى حياتها الباريسية كانت دائما تأخذ الموقف المتعادل . يقول محسن وهو يصف مشاعره ، وهو فى داخل كنيسة سان جرمان :

« هنا أيضا عين الخشوع وعين الشعور ، الذى كان يهز نفسه كلما دخل فى القاهرة مسجد السيدة زينب هنا أيضا عين السكون ، وعين الظلام فى الأركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح فى جو المكان .. أن بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وفى كل زمان ..

الى أن يصف تصرفه عندما مضى يلوح القمقم ذى الماء المقدس نحو التابوت راسما فى الهواء علامة لا يدرى من ذرط اضطرابه أدلت على صليب أم على هلال(٧) .

ان المقصود هنا ليس ما فعله ، بل المعنى وراء ذلك الفعل ، حتى وان جاء مجرد تصور ..

انه الوعى بالمتقابل ، وادراك للسلوك المتعادل ..

وعندما يتذكر محسن مصرع جندى بريطانى ، قد ملأ الدم وجهه وتناثر مخه فى كل مكان .. يعبر عن ذلك قائلا : «ان منظر الجندى الشاب المضرج بدمائه لم يترك مخيلته ، لقد نسى أنه عدوه .. عدو وطنه .. انه لم يعد يذكر الا ذاك المنظر المحزن .. ذاك الموت الفظيع .. »(٨) .

---

(٧) عصفور من الشرق ـ ص ٨٣ .

(٨) عصفور من الشرق . ص ٨ .

انه هنا قمة التعادلية الانسانية بهذا الشعور ، لأنه من البديهي ان سفك الدماء ومقاتلة العدو ، لا يكون فيها حتى الجندي المعذب في حالة نفسية متعادلة والا ما قتل ، فلا مكان لعاطفة أو المنطق غير أقتله لتعيش أنت ، أو أقتله قبل أن يقتلك ٠ ولكن بتحكم التعادلية فى العقل والقلب ٠ جعلته يتعاطف مع عدوه ضد الموت ٠ انه حب الانسانية ٠٠

وهو العصفور من الشرق ٠٠ الشخصية المتعادلة يقف بين حضارتين ، دون أن يفقد أحد طرفى المعادلة ٠٠

« نعم ٠٠٠ ان « محسن » ليشعر دائما انه لا يسكن الأرض وحدها ، ان حياته ممتدة أيضا الى السماء وأن له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين أهل السماء ٠٠ انه لن ينسى « السيدة زينب » الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات ٠٠ ان لها وجودا حقيقيا فى حياته ٠٠ »(٩) ٠

وكذلك يعبر عن الخلل الذى يحدث عندما يضيع التوازن : « آه ٠ ٠انه قد نسى حاميته التى فى السماء لو أنه أحس يدها على كتفه لما تعثر فى خطاه أمام صورة سوزى ٠٠ »(١٠) ٠

ونمط تعادلى آخر هو صديقه الروسى « ايفان » الذى كفر بالشيوعية ٠ انه وجد الرؤية المتعادلة فى الاسلام وفى حضارة الشرق وكفر بالرأسمالية ونبذ اليهودية ونبذ المسيحية ٠٠ وقال :

---

(٩) المرجع السابق ص ١١٥ ٠

(١٠) المرجع السابق ص ١١٧ ٠

ـ « دعني أيها الشاب ، سنذهب الى الشرق ، أريد أن أرى جبل الزيتون ، وأن أشـــرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم ٠٠ »(١١) ٠

وعندما نمضى خلال رواية « الرباط المقدس » ٠٠ نجد أن راهب الفكر على اصراره أن يكون للفكر أبدا حياته والا يسقطه الهوى ٠٠ وتبدأ الرواية عندما يمضى راهب الفكر كعادته فى الصباح ليفض رسائل قرائه ٠٠ وبالطبع يكون بينها رسالة قارئة تصبح محور الرواية ٠٠ تطلب مشورته ، وتبدى دلالته ، وتطلب نصيحته الخ ٠٠ ويخشى أن يصبح مثل الراهب « بافنوس » الذى نرى انه فقد تعادليته فصار عبدا باشتهائه « تاييس » وتمضى الرواية على هذا المضمار ٠٠ وبالفعل يكتب اليها رسالة عن تاريخ الهوى ٠٠

ولكن بعد أن تصهره التجربة يعود الى توازنه ٠٠٠ وتتحقق له التعادلية ٠ وفى الفصل الخامس عشر (الخاتمة) جاءته رسالة من امرأة تريد أن تحادثه فى شأن الادب ، فكاد يمزق الرسالة لكنه ثاب الى رشده قائلا :

« الشجاعة ليست فى تجنب مزالق الجسد وتحاشى مواطن الذلل بل فى مواجهتها بمصباح الحقائق ونور المثل العليا »(١٢) ٠

---

(١١) المرجع السابق ص ٢٠٠ ٠

(١٢) الرباط المقدس ٠ ص ١٢ ٠

وفى مقابل هذه الشخصية التعادلية المتمثلة فى راهب الفكر ·· نجد شخصية الزوجة التى تصبح طورا أكثر من ساقطة أو معبود منطين . ثم اذا بها الزوجة المثلى ونموذج للدفاع عن حقوق المرأة والزوج المخدوع الذى اختلطت لديه وعليه الأمور وابن خاله الضابط الذى اطلق على نفسه الرصاص لسيطرة الشك فى حقيقته نسب ابنه ·· وهكذا تنشأ العلاقات بين تلك الشخوص من خلال عدم التوازم ، وعدم امكانية تحقيق التوازن بين المتقابل من أمور الحياة مع المستوى الخاص ··

وفى المجموعة القصصية والروائية «راهب بين النساء» ·· تستوقفنا قصة السابحة وغريقها « فتكون ازاء المرأة المنقذة · تطرح مبدأ لا موت بدون حياة سابقة ·· ابدأ الحياة وعشها كما ينبغى أولا ·· لقد تجسد لها رمز الشخصية التعادلية · فهى حواء بمعنى الكثرة ، من خلالها كطرف تتولد الحياة ·· تمثل فى القصة الجانب الايمانى الذى يحقق طرف المعادلة ·· عند الآخر ·· عندما يشغله أمر التخلص من الروح زاعما : « لولا تدخلك الطائش لكنت الآن فى عالم أرقى » ··

فتجيبه :

ـ مصيبة نزلت عليك ؟ ·· ولماذا لا تعتبرنى ملاكك الحارس ؟ ··(١٣) ·

---

(١٣) السابحة وغريقها . كتاب « راهب بين النساء » ، ص ٥ ·

وفي قصة « امرأة غلبت الشيطان » ·· امرأة كما عاشت دميمة ، وفي خريف العمر ، والحرمان · طالبت بالجمال والحياة والمتعة ·· ولكن في مقابل روحها ·· وعندما جربت كل طرف من أطراف المعادلة على حدة ، لم تجد أمامها حتى تحقق تعادلية الشخصية ، أو الشخصية السوية ، الا التنسك وحجت وسمت بتأملاتها وانقطعت للعمل الصالح والطهر ··(١٤) ·

ويمكن أن نرصد العديد من الشخصيات التعادلية في قصص توفيق الحكيم ، ففي قصته « شهرزاد مع شهريار العصر »(١٥) تحاول شهرزاد أن تقدم حكمة الزمن حتى يتغلب الخير في نفس الانسان ، وتقاتل الشر بقوة تساويه من هذا الخير ومن ثم يتحقق التعادل أو التوازن المطلوب ·

وفي قصة « أمام الحوض المرمرى »(١٦) · يثير من خلال لقاء المبدع المفكر وشهرزاد والوزير قضية خلافية ·· فشهرزاد الرمز هنا بمعنى الانتماء أو الوطن ·· والوزير يكون رمزا الحكم ، فعندما يلتقى المبدع بـ « شهرزاد » وتأنس له ، ويتبادلان الاعجاب ، فيحقد الوزير ، ولعله بحقده يخلق مناخا زائفا ، وبعد أن تقدم « شهرزاد » قبلتها للمفكر المعجب المفتون ، فجأة تتصور « شهرزاد » شهريار الدكتاتور السفاح ، وتأخذها موجة الشك ، أهو تابع له ؟

---

(١٤) القصة ضمن مجموعه « أرني الله » ·
(١٥) القصة ضمن مجموعة « سلطان الظلام » ص ٩١ ·
(١٦) قصة قصيرة · نشرت ضمن مجموعة « سلطان الظلام » ·

.. وبرغم أن المفكر ينفى عن نفسه كمبدع ومفكر ـ تلك التبعية .. الا ان الفراق يحدث ..

ان قضـية الفكر والعمـل فى اطار التعادلية ، تبرز واضحة في هذه القصة .. فالفكر لابد أن يكون دائما غير تابع للعمل ، أي أن المفكر الاديب لا يجب أن يتبع السلطان ، وألا يكون ظلا له .. والا خسر مكانته ودوره فى الرأى والتوجيه .. كما خسر هذا المعجب المفتون شهرزاد ..

الأنمــاط غير التعادليــة

الأنماط غير التعادلية فى أدب الحكيم

واذا كنا فيما سبق قد طرحنا استشهادا ــ وليس استقصاء بهدف الحصر ــ على تعادلية الأشخاص أو الشخصية التعادلية فى أدب توفيق الحكيم ، واذا كنا قد قطعنا شوطا مع هذه الشخوص فى اطارها التعادلى الايجابى ·· الا أنه بالمقابل توجد ، أو لابد أن توجد الانماط غير التعادلية فى الشخوص ·· أو الشخصية الابتلاعية فى منطوق الحكيم ··

والشخصية الابتلاعية ، تمثل القوى التى خرجت على ناموس التعادلية « كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها »(١)·

ولنمعن الرؤية فى قصة « تلميذ الموت » عندما : «جلس الموت ذات صباح فى قاعة عمله الى مكتب ضخم يقوم على عظام فيل ··· الخ ···

ولما لم تعجبه احصاءات الهلاك لبنى البشر ·· صاح نافذ الصبر :

(١) التعادلية ص ٤٤ ·

ـ « هذا افلاس ·· ان هذا هو الافلاس ·· »

ولكن انى له بمن يحقق له شراهته فى حصد ارواح بنى آدم ··؟ ·· ليس الا واحد منهم يستطيع ذلك ·· « وهنا وجد الموت ضالته ·· (يقصد رجلا مجنونا) ·· والجنون هنا شخص له أطماعه ، تغلب عليه أنانيته وشهوته للسطوة والسيطرة ، وغلبت عليه روح الشر ·

ان أمثال هذه الشخصيات غير التعادلية أو الابتلاعية هى التى تطفو وتبرز عندما يسيطر « سلطان الظلام » ·· ولا يخفى على نباهة القارىء ان سلطان الظلام عنوان كتاب للحكيم شمل قصصا قصيرة تناولت مثل هذه الأنماط الابتلاعية ··

وعبورا الى مجموعته القصصية « عهد الشيطان » · سنجد نموذج المرأة التى نبذت حب الفيلسوف ، لمجرد أن الزوج (والزوج هنا بمعنى فكرى اسقاطى يقصد به من يحكم) لمجرد ان فى يده الثروة استطاع أن يبتلعها ، ولكونه المسيطر فهو شخصية ابتلاعية ··

وأليست شخصية « سوزى (فى عصفور من الشرق) ـ مثالا للشخصية الابتلاعية ، ونمطا غير تعادلى ، فهى تتعامل مع الحب بفوضوية وبوهيمية شـــديدة ·· « انه مازال يسمع فى الصباح عين الاغنية من كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى لا يعرف أبدا قانونا »(٢) ·

---

(٢) عصفور من الشرق ص ١٤٧ ·

وحدثته نفسه أحيانا بالثورة ، وود لو تنفلت كل ذرة من ذرات حبه الى قنابل ، تتسـاقط محطمة ذلك الشيء الجميل الذى كان يسميه « سوزى » ٠٠(٣) ٠

ولذلك فهو يوجد له المشابه (وهذا فى تقديرنا يمثل الشخصية الابتلاعية) مثل « سميراميس » التى تدعو أسيرها الى ليلة مـ نليالى النعيم ، وفى الصباح تسوقه الى الموت ٠٠ « وهو ذاهل ٠٠ مازالت فى رأسه بقية من نشوة الليل » ٠

وهذا ما بترجمه « محسن » من أعماق ذاته ، وهو لا يضيق من هول الصدمة ، أمام تلك الشخصية الابتلاعية ٠٠ فيقول : « ان من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة ، ان تعيش فى الاحلام كما تعيش فى الحقائق ، وأنها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة ٠٠(٤) ٠

ونجد أشباه هذه الأنماط فى مراحل متباينة ، ويعمل الحكيم على ابرازها ، ومن ذلك مسروايته (أى مسرحيته الروائية) ٠٠ « بنك القلق » ٠٠ وهى بدءا من العنوان الى قضيتها الرئيسية الى زمن نشرها جاءت بدافع تسليط الأضواء على السلبية ، التى سربلت معالم حياتنا خلال عهد الثورة ٠ وتبرز معالم الفكر التعادلى تطبيقا خلال هذه الرواية عندما تقدم نمطا وأكثر ليقـاس بمعـايير التعادلية ٠٠ فقد ورد فى كتاب التعادلية : فالقلق السائد

---

(٣) المرجع السابق ص ١٤٩ ٠
(٤) المرجع السابق ص ٥٤ ٠

فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب ·· بين الفكر والايمان ·· »(٥) ·

ومن ثم نجد فى « بنك القلق » ذلك النمط متمثلا فى « أدهم سليمان » ـ رمز العقل المفكر ، « وشعبان جاد عوضين » الذى يمثل العاطفة الجامحة · وشخصية غير تعادلية ـ أيضا ـ هى ذلك الوجيه الثرى « منير عاطف » ·· فاذا كان الأخير اقطاعى ضربت مصالح طبقته ، وبرغم ذلك لا يعلن عـداء ، بل يبيت النية على التحـــرك فى الوقت المناسب ، ويتباين زبائن بنك القلق » بين مدعى التقدمية ، وغيره من رافضى الاقطاع ·· وآخـــر يتهم المجتمع بالفجور ··· الخ ···

ان هذه الرواية خضم لأنماط تعانى لأنها تعيش فى غيبة ميزان التعادلية :

« ادهم : انا أقول لك يا هانم ·· باختصار لاحظنا أن كل انسان عنده شيء يقلق باله ·· فى ناحية من النواحى ·

مرفت : طبيعى ··

أدهم : وكل مصاب بالقلق فى حاجة الى علاج ··

مرفت : آه ·· طب نفسانى ؟

أدهم : لا أبدا ·· نحن لسنا أطباء ·· نحن أيضا مرضى ·· ومهمتنا أن يفتح الناس صدورهم لنا ونفتح صدورنا لهم ·· علاج متبادل ··

---

(٥) التعادلية ص ٢٠ ·

شعبان : وهذا هو الفرق بيننا وبين الطبيب النفسانى ·· الطبيب النفسانى يعتقد أنه هو السليم وأن الناس هم المرضى (٦) ·

ولعل من الأمثلة الصارخة فى أدب الحكيم ـ أيضا ما جاء فى مسرحيته « ايزيس » من انماط ابتلاعية جعلت للأسطورة معنى عميقا يعيش عبر العصور ·· وهذا ما أصر الحكيم على ابرازه ليس فقط من خلال المسرحية ، بل كتب أيضا تحت عنوان « بيان » فى نهاية المسرحية(٧) : « ليس المقصود هنا تصوير الحياة الفرعونية أو بسط العقائد المصرية القديمة ، بل المقصود هو ابراز أشخاص الأسطورة ابرازا جديدا انسانيا وتخرج معناها على النحو المفهوم الحى فى كل عصر وفى العصور الحديثة على الأخص » ·

ويبرز لنا دور الشخصية التعادلية ونقيضها (أى الابتلاعية) عندما كتب : « وحقيقة الصراع بين أوزوريس وطيفون (فى نظر المعانى الحديثة) أن رجلا يعرف كيف يخدم الناس ، وآخر يعرف كيف يستخدم الناس · أى بالمعنى العصرى صراع بين رجل العلم ورجل السياسة ·

---

(٦) بنك القلق · ط ٣ · صدرت عام ١٩٧٩ م · الناشر دار المعارف بمصر ·

(٧) ايزيس ص ٣ · ط ١ · ١٩٥٥ م ·

وبالتالى قد يحتدم ـ فى عصرنا ـ الصراع بين رجل العلم ورجل السياسة حوالى سنة ٢٠٠٠ ميلادية ٠٠ الخ ٠

ويتضح هنا هذا التركيز على فكرته عن المتقابل بين الفكر والعمل ٠٠ المفكر والسلطان ٠

وفى نهاية هذا البيان يتساءل الحكيم : « ماهو مستقبل الانسان ؟ ٠٠ هل هو فى الارتفاع الى صفاء الملائكة ؟ ٠٠ أو هو فى بقائه بشرا يكافح ليعادل المثالية والواقعية ، ويخرج من هذاالـ تعادل بهدف أنبل وحياة أفضل ٠ »

تعادليــة الحــكيم والاســلام

- ليس بعيدا عن الاسلام ·
- التعادلية والاسلام ·
- فى ضوء علم الكلام ·

تعادلية الحكيم والاسلام

عندما نتأمل عطاء الحكيم الثر ، سواء كان ذلك فى المسرح أو القصة أو الرواية ٠٠ نجد أن استلهامه للدين يمثل الجانب الرئيسى فى العديد من أعماله الروائية والقصصية والمسرحية ٠ وعلى رأس ذلك مسرحية « أهل الكهف » التى نشرت عام ١٩٣٣ ٠ وتعتبر العمل المسرحى الذى قيض للحكيم الشهرة سواء على المستوى الجماهيرى أو المستوى الفكرى ولدى النقاد ٠٠

لقد استطاع توفيق الحكيم من خلال فصولها الأربعة المستوحاة من « سورة الكهف » والشاملة لثمانى عشر آية ٠٠ أن يطرح آراء فكرية لها أهميتها ، كما كان لها دورها البارز فى حركة المسرح العربى فنا وابداعا ٠٠

٠٠ وجاءت مسرحية « محمد » التى عرضت السيرة النبوية بشكل دراسة ملحمية فى ثلاثة فصول وخاتمة ، وذلك عندما نشرت فى سنة ١٩٣٦ ٠٠ معتمدا فيها على السيرة النبوية الشريفة بكل تراثها ٠٠ مرتكزا على الأحاديث النبوية وعلى التنزيل الحكيم ٠

ثم جاءت مجموعته القصصية الأولى « عهد الشيطان » ـ التى نشرت عام ١٩٣٨ ـ وقد استلهمت رمز الشر فى الأديان السماوية ، وهو الشيطان ابليس ، فى هذه القصة كذلك يوظفه فى قصته « فى حانة الحياة » ـ ثم فى قصته « عدو ابليس » ، وتقوم على الحوار بين ابليس وعزرائيل، عقب وفاة الرسول « صلى الله عليه وسلم » ٠

وفى سنة ١٩٤١ كان قد صدر للحكيم مجموعته الثانية، وهى سلطان الظلام « وقد تضمنت المسرحية ذات الفصل الواحد » « صلاة الملائكة(١) ، والتى أهداها الى « أصدقاء الانسانية ٠ وجاء المنظر الأول فيها يشمل حوارا بين ملكين، ثم يرتفع الى السماء حيث أصوات صلاة ٠٠٠ الخ ٠٠٠

كما نجد وقفة أصيلة منه ازاء قضايا الفكر الدينى عامة ، والاسلامى خاصة ، ونلمس ذلك فى رائعته الأدبية « عصفور من الشرق » ٠ ولنتأمل هذا الحوار بين «محسن» وصديقه الروسى(٢) :

« كيف حالك اليوم يامسيو « ايفانوفيتش » ؟ ٠٠

ـ بخير ٠٠٠

ـ انك تجهد قواك فى القراءة ، وأنت لم تزل مريضا ٠

ـ اجلس ٠

قالها الرجل على نحو غريب ، عجب له الفتى ، ونظر بطرف عينيه الى الكتب ، وقرأ فى دهشة :

---

(١) نشرت ايضا ـ فيما بعد ـ ضمن كتاب « المسرح المنوع » صدر عام ١٩٥٦ م ٠ ،

(٢) التعادلية ص ١٩ ٠

— « التوراة » ، « الانجيل » ، « القرآن » ٠٠

— عجبا انك فيما أعلم لا تؤمن بشيء ٠٠

فقال الروسي ، كالمخاطب نفسه :

— أريد أن أعرف : كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطي البشـــرية راحة النفس ، وأن تغمرها في ذلك الاطمئنان ؟ ٠٠ نعم ٠٠ أنى لا أؤمن بشيء ، وانى أرى أحيانا الموت دانيا منى ، وفي يده « خرقة » ليمحونى كما يمحى رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء ٠٠ فاحتقر نفسي ، وازدرى كل حياة انسانية ٠٠ آه ٠٠ ما أسعد أولئك المؤمنين ، الذين يرون الموت مرحلة الى حياة أخرى مجيدة جميلة ٠٠ انهم بلاشك ينظرون الى الموت ، كأنه عربة « بولمان » في قطار سريع ، يذهب بهم الى نزهة آخر الاسبوع ٠٠ ان مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الانسانية الا أنها شيء عظيم ٠٠ لأنها تشغل الكون دائما ، طول الخلود ٠٠ انهم لا يستطيعون أن يزدروا أنفسهم هؤلاء الناس ٠

ان الشـــرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان (يقصد التوراة ، المسيحية والاسلام) انما أعطاها على النحو الذى ذكرنا فتسلمها الغرب ، وألبسها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رؤسها التيجان المرصعة بالماس ، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضى ٠٠ » ٠

ولقد استلهم توفيق الحكيم السماء — أيضا — خاصة « الجنة » و « النار » في قصته « طريد الفردوس » التى جاءت ضمن كتاب « قصص توفيق الحكيم » — المجموعة الأولى ٠ في عام ١٩٤٩م ٠ وطرح فيها قضية الصراع بين

الخير والشر وثواب الآخرة ـ وعندما تستوقفنا « قصص توفيق الحكيم » ـ المجموعة الثانية ، والتى نشرت أيضا فى عام ١٩٤٩ ، نجده يجعل من السماء مسرحا لموضوع قصــته « الدنيا رواية » وينشىء حــوارا بين الملاك الذى يستقبل الأرواح ، التى يقبضها عزرائيل ٠٠ الخ ٠٠ ثم تدور الحوادث على الأرض ، ثم عودة الى السماء فى النهاية ٠

وهذه القصص قد استلهم فيها قضايا الدين ومسائله، وغالبها ما يأتى اثارتها فكريا فى اطار الاسلام ٠٠ كذلك نجد ان توفيق الحكيم قد استلهم قصة النبى سليمان فى مسرحية « سليمان الحكيم » ـ والتى صدرت عام ١٩٤٣ ٠٠ ليستخلص منها الحكمة . وليواجه بها أزمة العصر الذى يعايشه ٠ ثم فى مجموعته القصصية الشهيرة « أرنى الله » ، بما تضـــمنته من افكار ميتافيزيقية ، الى جانب القصـــة التى تحمل عنوان المجموعة مثل « امرأة غلبت الشيطان » و « الشهيد » من أفكار تتعلق بالدين والدنيا وقد نشرت فى عام ١٩٥٣ وفى كتابه « راهب بين نساء » نرصد قصته « من هى حواء » ٠٠ حيث يتم توظيف ضلع آدم لخلق حواء ، ودور الحية وابليس ٠٠ الخ ٠٠ وحتى الخروج من الجنة ٠٠

فتلك القصص والمسرحيات ، الى جانب ما تضمنته روايتا « عصفور من الشرق » و « عودة الروح » من أفكار ارتبطت بالاسلام عن مســـتويات فكرية مختلفة ٠٠ كانت ـ سواء باشارة الحكيم اليها أساسا ، أو توظيفه لها مع غيرها ـ فى مجال الرصـــد والتحليل للتعادلية فى أدب توفيق الحكيم ٠٠ مما يؤكد أن ركيزة الدين أمر قائم فى ابداعه ، وارتباطها بالرؤية التعادلية أمر واقع بالفعل ٠٠

ولذلك فان جولة فى كتاب « التعادلية » وعلى مدى صفحاته ، يمكن لنا من رصد وقفات الحكيم واشاراته الى الدين : ان التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القـــرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ٠٠ أى بين نشاط التفكير ونشاط الايمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى»٠ وفى موقع آخر كتب : فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الانسان ليس وحده فى هذا الكون ٠ وهذا هو الايمان » ويضيف : « انى أؤمن بأنى لست وحدى ٠ لأنى أشعر بذلك ٠٠ ولم أفقد ايمانى لأنى رجل متعادل »(٣) ٠ « ولايمكن أن أنكر القلب والايمان ٠٠ الخ ٠٠ »(٤) ٠ « وان ارادة الانسان فى كفتها تعادلها الارادة الالهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادلها الايمان فى كفة ٠٠ » ٠ و « ٠٠ فالانسان عندى ليس اله هذا العالم ٠٠ وهو ليس حرا ٠٠ ولكنه يعيش ويريد ويكفاح داخل اطار الارادة الالهية ٠٠ »(٥) ٠ كذلك سجل توفيق الحكيم : « الله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته ٠ ومع ذلك أوجد بارادته تعالى قوة أخرى مقابلة هى قوة الشيطان ، كى تبدأ الحياة البشرية فى التلون والتحرك(٦) ٠

---

(٣) المرجع السابق ص ٢٣ ٠
(٤) المرجع السابق ص ٣١ ٠
(٥) المرجع السابق ص ٣٣ ٠
(٦) المرجع السابق ص ١١٨ ٠

ليس بعيداً عن الاسلام

لكل ما سبق من رصد وتحليل له أو تعليق عليه ·· كان دائما يستوقفنى السؤال ··

أين الاســـلام ـ صراحة ـ من كل ذلك فى كتابات الحكيم ؟ ·· انه لم يلجأ الى النص القرآنى فى «التعادلية»، ولم يلجأ الى السيرة النبوية فى كتابه ، واعتمد دور العقل والتفكير فى بسط ما جاء فى التعادلية · ولذلك فان ما كان يستدركه الدكتور « زكى نجيب محمود » فى مناقشـــته للتعادلية(٧) ، كذلك ملاحظات الدكتور « عاطف العراقى » التى نشرت تحت عنوان « تعادلية توفيق الحكيم والبحث عن الانسان فى الكون والمجتمع « ومما جاء فيه : « أما أقواله (أى الحكيم) عن التعادلية والاسلام ، ومحاولة كثير من الباحثين الربط بين فكرة التعادلية عنده ، وفكر الوسطية فى الاسلام ، فانها لا تمثل تيارا رئيسيا فى فكرة التعادلية عنده ·

---

(٧) د· زكى نجيب محمود · مجلة الهلال · عدد فبراير عام ١٩٦٨ م ·

« وكم أخطأ عديد من الباحثين فى رد بعض أفكار التعادلية عنده الى الاسلام . وسنرى أن لكل التساؤلات التى طــرحها خلال بحثه فى كتابه عن التعــادلية أو مسرحياته ، انما تعد تساؤلات فكرية أساسا وليس من الضرورى أن تكون تساؤلات مصدرها الدين الاسلامى»(٨)

فهذه الملاحظات وتلك الاستدراكات ، قامت برصــد لمشابهات بين التعادل وما ادى كلاسفة اليونان مثل : جمع الأضداد في وحدة ، وقول « هيرقليطس » بأن حقيقة الكون أضداد تتعادل . والتجاذب والتنافر عند « انباذقليس » بين المحبة والكراهية ، أو مبدأ « الوسط الذهبى » ، الذى يتوسط المتطرفين فيكون هو الفضيلة والحكمة .

ان فكرة الأضداد ــ عند « هيرقليطس » هى أن عالمنا هو عالم الأضداد ، وأن الصراع الدائم بين الأضــداد « هو سنه الوجود » « فلا ينسجم الكون ويتناغم الا اذا التقى الخير والشر ، ولا يستقيم الا مع السرور والألم ، والبقاء والفناء »(٩) .

ومما لاشك فيه أن التعادلية كما بسطها « الحكيم » لم تنص على الصراع بين الضدين ..

وتأسيسيا على كل ما سبق ــ أيضا ــ اكرر سؤالى عن منابع الاسلام وروافد التى اتسمت بها التعادلية .. ؟

---

(٨) د. عاطف العراقى . مجـلة القـاهرة . عدد ٧٥ ــ ح ١٥ سبتمبر ١٩٨٧ م .

(٩) قصة الفلسفة اليونانية . تصنيف : أحمــد أمين . زكى نجيب محمود . ط دار الكتب المصرية ، عام ١٩٣٥ م .

وتأتينى الاجابة ، عندما نشر الحكيم كتابه « التعادلية مع التعادلية والاسلام » .

وقد تؤدى القراءة غير التأملية لمناقشة الحكيم لفكرة الالتزام ـ خاصة فى كتابه « التعادلية » ـ أن تؤدى الى أنه يرفض رفضا مطلقا للالتزام الطويل الأمد فى الفكر عامة .. خاصة عندما يتناول الحرية فى الأدب والفن بقوله : « الالتزام الطويل الامد برأى معــين يؤدى الى الايمان .. والايمان يؤدى الى تعطيل الفكر .. والفكر يجب أن يتحرك ليوجد المفكر .. والمفكر اذا فكر ناقش الالتزام ، وقد تؤدى مناقشة الالتزام الى التحلل منه .. »

وقد نصطدم بهذه المتواليات ـ اذا اخذت هكذا للوهلة الأولى .

ولكنه عندما يقول : « ولكن الايمان فى الرســالات السماوية مقبول ، لأن الامر كله متعلق بموضوع علوى بعيد عن متناول الفكر ، فنحن عندما نؤمن بفكرة الله قد رضينا مختارين أن نلتزم بتعطيل التفكير فى ماهيته سوى حكمه واكتفينا بالايمان ، لعلمنا أن فكرنا البشرى لا يصلح أداة لادراك قوانين من هو فوق البشر »(١٠) .

● والتساؤل الآن : أليس بعد ما ورد فى الايمان الفكرى والايمان الدينى .. على هذا الشكل العاجل .. أن يكون من الضرورى وقفة افاضة من الحكيم ـ من منطلق دينى ـ حتى نشــبع فضولنا العقلى والايمانى من بحث التعادلية فى ضوء الدين ؟؟ ..

---

(١٠) التعادلية ص ٨٣ ، ٨٤ .

وفى الحقيقة لا أجدنى متعسفا ولا ظالما فيما اردت ٠٠ فان توفيق الحكيم قد اصدر كتابه عن « التعادلية والاسلام» بمقدمة جاء فيها : « وأخيرا فما دمنا قد حاولنا أن نجيب عن السؤال الذى نطرحه دائما على أنفسنا ، وهو عدم وجود فلسفة لنا الآن ، وأن تفكيرنا وفلسفتنا هى مانستجلبه جاهزا من الفلسفات الأوربية ، فان هذه المحاولة قد انتهت بى الى ما كنت أشرت اليه فى عام ١٩٣٧ فى كتابى « عصفور من الشرق » من أن حياتنا العقلية تعيش فى عالمين ٠٠

« وفى عام ١٩٥٥ كتبت « التعادلية » لأوضح أن كل شىء فى الكون يقوم على التعادلية ٠٠

ثم وصلت الى ١٩٨٢ فوجدت أن دينى ، وهو الاسلام، وهو جزء من النظام الكونى ، قائم على التعادلية ، ولذلك أضفت هذا القسم الأخير الخاص بالاسلام من وجهة النظر التعادلية ، ورأيت أن ما يمكن جعله أساسا لفلسفة عربية اسلامية هو ما نشأ من عقيدتنا التى تقول للانسان أن عليه أن يعيش فى عالمين أى أنه يعيش فى الدنيا كأنه يعيش أبدا، ويعيش للآخرة كأنه يموت غدا » ٠

ومن هذا المنطلق يرى توفيق الحكيم أن هناك فلسفة دين ودنيا ، وأخرى لشئون الآخرة ، وبتعمق الفلاسفة وتخصصهم فى الشق الاول ، وآخرون ينبرون للشق الثانى من تلك الفلسفة ، وبتحقيق « التعادل » بين الميانين تنشأ الفلسفة الاسلامية والعربية ٠٠(١١) ٠

---

(١١) التعادلية والاسلام ص ١٦٧ ٠

التعادلية فى الاسلام

ولقد أورد توفيق الحكيم « خلاصة التعادلية الاسلامية فى التالى :

تعادلية الكون ـ للمحافظة على كل ما أوجده الخالق ·· فلا طغيان لوجود على موجود ·· أوصى الله فى قرآنه بعدم الغلو والاسراف ، وبالعدل ، لعدم الاخلال بالتعادل الضرورى لتوازن عناصر البقاء من أضخم الكواكب الى أصغر الخلايا ·

● الله لا يلغى وجود ما أوجده ، ولكن يغير صفة الوجود ، وما نسميه الموت ليس الغاء الوجود ، بل تتغير صفته ، ونقله من وجود دنيوى الى وجود آخروى ··· وما سمى الناسخ والمنسوخ فى القرآن ليس الالغاء ، ولكن « وقف التنفيذ » لحكمة وظروف ·· لأن من غير المعقول واللائق الزعم بأن الله يغير ارادته كما يفعل البشر العاجز ·

● الاسلام صالح لكل زمان ومكان : والمقصود أن تفسير القرآن ليس واحدا ، بل انه متعدد بتعدد الزمان والمكان ، فالنص واحد والتفسير متعدد ولكل زمان دولة ورجال وتفسير · والكون متحرك فى الزمان والمكان ،

وكذلك الاسلام ·· والاسلام متحرك فى مراحل العمر ، لا جمود أو وقوف فى زمن واحد أو وضع ثابت · الله وحده الثابت ·· وفى الانسان شىء ثابت وهو المتصل بالله ·· أما المتصل بالدنيا فهو المقابل للتغيير مثلها ·

● بشرية الاسلام ·· اكد القرآن على أن نبى الاسلام بشر يوحى اليه · فهو محكوم ببشريته ، الا فيما نزل به وحى ، فهو محكوم بألوهية التنزيل · ولأن النبى بشر ، وقد أراد الله أن يكون كذلك حتى يخالط البشر فى مجتمعهم ويعرضوا عليه مشكلاتهم وقضايا مجتمعاتهم ، ويشير عليهم بالحلول التى يراها ويتلقى فيها التأييد أو التعديل من الله ·· حتى جانب كبير من القرآن متصل بحياة الانسان ومجتمعه ، وخاصة المجتمع فى زمانه ، ولم يصدق كثير من الناس أن النبى بشر مثلهم يمكن ان يموت ، الى أن صاح فيهم العباس قائلا : « انه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا : أحل الحلال وحرم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، وماكان راعى غنم ·· يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم » ·

● حرية البشر : ترك الاسلام للانسان حرية الرأى والتصرف فيما يراه نافعا له ولمجتمعه ، وتبعا لحسن استخدام عقله الذى خلقه الله له ، وحثه على استعماله ليدرك به عظمة الخالق فى خلقه ، ويتابع به حركة الحياة فى الدنيا ويبعد عنه الجمود الذى يؤدى الى ضعف نشاطه الفكرى ، فلا يقوى على تغيير ما بنفسه حتى يساعده الله على ما فيه خيره ، مصداقا لما قاله تعالى فى قرآنه الكريم « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ·

فى ضــوء عــلم الكــلام

ويمضى الحكيم مع اللغة ـ أليس من أجلها وبها سمى القرآن بالبيان ؟ ٠٠ ـ ليقرن كلمة تعــادلية بجنســـها الاستشقاقى ، ويستخرج من ذلك أفكارا تعادلية : « والعدل والاعتدال والتعادل هى العناصر الثلاثة للتعادلية ، وضد هذه العناصر الطغيان والظلم والاسراف ، وقد ذكر فى القرآن كلمة « الاسراف » كثيرا ، والأمر دائما بالقول « لا تسرفوا » ، لأن الاسراف اخلال بنظام الكون ٠٠ » ٠

ولا يجد الحكيم غضاضة فى أن يجعل الطغيان ميزانا للجمال والقبح : « فالاسلام لا يحب أن يطغى القبح فيفسد حسن التقويم ، ولا أن يطغى الجمال فيؤدى الى التخنث ٠٠ فالاسراف ، أى الطغيان فى الاسلام يفسد انتظام الكون ٠٠

وكذلك يرى فى العسر واليسر ٠٠ « وفى الاسلام الضرورات تبيح المحظورات » ٠ « وانما الأعمال بالنيات » فاذا انتفت نية السوء والكسل والتهاون فى الدين ، فان الدين يتسامح ،لأنه يســر ولا عســر » ٠ وفى الاســلام تعادلية : فلا طغيان للعسر على اليسر ٠ (١٢) ٠

وتوفيق الحكيم يرد التعادلية فى جوهرها الى الاسلام، ويجد أنه المصــدر اللازم لها ٠٠ كما يجــد ان الرؤية

---

(١٢) المصدر السابق ص ٢٣ ٠

التعادلية أمر لا يخرج عن ماهية الاسلام . فقد أورد قائلا :
« ان أهمية التعادلية اليوم هى فى كونها لازمة أكثر من أى زمن مضى ، وخاصة فى بلاد الاسلام ، لأن التعادلية فى جوهرها نابعة من جوهر الاسلام ، والخروج على الاسلام فى جوهره يتبعه بالضرورة خروج على جوهر التعادلية وعناصرها : العدل والتعادل والاعتدال . » .

وبلا شك أن الحكيم فيما سبق ، قد استطاع أن يوجد لمذهبه الفكرى الشرعية والبقاء ، عندما جعل الاسلام نبعا لافكار تعادليته ،وجعل الاسلام قبلتها .. وهو أكثر من ذكاء لا يستكثر على أديب علامة نبغ فى أن يجعل الفكر روح ابـــداعه . وهو بهذا وذاك يرد كل من يـزعم أن « التعادلية » لا علاقية لها بالاسلام ، وحتى الذين زعموا دون أن يسجلوا فى المواجهة انهم ناقشوا كتاب « التعادلية والاسلام » ولعل هذا الارجاع من الحكيم للتعادلية الى الاسلام يفتح الداب أمام رؤيته هذه ، لتناقش فى ضوء علم الكلام ، الذى يعتبر المنهج الفكرى الاسلامى فى النظر الى قضايا الاســـلام ومســـائله ، بديلا عن الربط بالفلسفة الاسلامية » ، التى اعتبرت من العلم الدخيل على الاسلام .. اقتداء بما شاع تحت مسميات فلسفية فى الحضارة الاغريقية ..

* * *

ـ الباب الثـالث

التعادلية فى شخصـية توفيق الحكيم

- مدخل الى شخصية الحكيم
- رؤية من الداخل •••
- فى مواجهة الشــر •

مدخل الى شخصية توفيق الحكيم

لا أجد عندى مثيرا للعجب ٠٠ أن أمضى باحثا عن التعادلية فى شخصية توفيق الحكيم ٠ فبعد بحثى عما يمكن أن يفهم منه حقيقة الشخصية التعادلية ، سواء فى كتابه « التعادلية » ، أوالتعادلية والاسلامثم رحلة رصد فى أدب توفيق الحكيم ، بمختلف ابداعه وفنونه ، عن مدى مصداقية مفهوم التعادلية على شخوص رواياته وقصصه ومسرحياته ٠

واذا كانت الخلائق التى عرضنا لها وجاءت لتشهد بروعة التفنن فى أبداعهـا ٠ فانه من الأولى أن نتلمس الرؤيا والسمات المميزة ، فى شخصية الفنان الأديب ، الذى وراء هذا الابداع الأدبى ـ من منطلق أن روعة الفنان فى داخله ، لا تقل عن جماليات وروعة فنه المبدع فى شكل من الأشكال الفنية كما أن هذه الشخصية فى جوانياتها ، يمكن أن تكون عالما قائما بذاته ٠٠

ولذلك فاننا نتوخى المنطلق ، الذى نشرف منه للتعرف على شخصية الحكيم تعادليا ٠٠

ومن ثم سنمضى فى جولة رصد وتحليل ، للتعرف على التعادلية فى شخصية توفيق الحكيم ·· ولعله من المناسب أن نمضى ـ بداية ـ فى رصد سريع لرحلة توفيق الحكيم مع الحياة العامة والحياة الأدبية فنتعرف بعض سمات عصره ، واثر ذلك فى عطائه الأدبى ··

واذا كان الحكيم لم يبدأ مشواره بخطى معروفة الا فى أعقاب ثورة ١٩١٩ فقد اعتبرت مرحلة ما قبل وبعد هذه الثورة ، مرحلة الرواد فى الأدب الحديث · واذا كان الشعر قد حظى بعد الحركة الاحيائية له على يد « سامى البارودى » فان شعراء فحول مثل : أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران قد مكنوا للشعر العربى الحديث ، بما أبدعوه من نتاج أدبى وشعرى رفيع ·· فكانوا هدف الاقتداء ممن واكبهم أو لحق بهم من الشعراء أمثال ، عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكرى ، وابراهيم المازنى ·

وكان من الطبيعى والشعر فى قمة فورته ، ان يتحرك النثر بخطى متئدة ، حتى قيض له من يدفعه حثيثا ، ليحتل موقعا بارزا فى أدبنا العربى ، وذلك على أيدى أعلام منهم الشيخ محمد عبده ، واحمد لطفى السيد ، الى مصطفى لطفى المنفلوطى ، وجورجى زيدان ، ابراهيم رمزى ، محمد تيمور ، محمد حسين هيكل ومصطفى صادق الرافعى والمازنى والعقاد وطه حسين · وفى هذه الحركة الواسعة النطاق ظهر انتاج توفيق الحكيم فقدر له أن يكون صاحب الشرف فى خلق أدب مسرحى نثرى حقيقى مبتدع للمرة الأولى فى تاريخ الأدب العربى ـ وأن يبث فى الأدب

القصصى دوافع جديدة بجودة بناء القصة والأسلوب ، أو بحسن اختيار الموضوعات المستمدة من واقع الحياة القومية والاجتماعية فى مصر ٠

وبنظرة للسمات العامة للحياة الفكرية هى تلك الآونة، سنجد أن فى عام ١٩١٤ خرج هيكل بـ « زينب »أول رواية فى الأدب العربى ، وعيسى عبيد أصدر مجموعة قصصية باسم « احسان هانم » وفى عام ١٩٢٧ مجموعة أخرى باسم « ثريا » ثم ظهور محمود تيمور وتوفيق الحكيم ٠

وتتميز المرحلة من ١٩٢٣ ــ ١٩٣٦ بأنها مرحلة دفع فكرى وحركة حية فى الميدان الفكرى والثقافى فها هو سلامة موسى يعلن فى كتاباته بأن مصر أصل حضارة العالم ، ويعلن عن اخطر كشف أثرى فرعونى عام ١٩٢٢ وهو اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون « ويتكلم طه حسين بمنهج ابن خلدون للمتمع باعتبارة المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع ، وفى عام ١٩٢٦ ينشر طه حسين « الأيام » ، وينادى أحمد لطفى السيد بتحديد موقفنا من التاليف والترجمة والنقل عن الآداب الأخرى ٠ ويجار صوت اسماعيل مظهر معلنا موقع الدين ازاء نظرة الفلاسفة ، كما يعلو صوت قضية المرأة على صفحات « الهلال » بين رأى أمين الريحانى ، ومصطفى صادق الرافعى ، ويثير محمود تيمور النزاع بين الفصحى والعامية ، وينادى العقاد فى ١٩٣٦ ان حرية الفكر هى حرية الحياة(١) ٠

---

(١) عماد الدين عيسى : يوسف السباعى « فلسفة قلم وحياة » ٠ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ٠

واذا كانت القضية الجوهرية التى تشـــغل الحياة السياسية فى مصر آنذاك ، هى قضـــية التحرر من ربقة الاستعمار البريطانى نجد أن توفيق الحكيم قد كتب أولى مسرحياته « الضيف الثقيل » فى عام ١٩١٨ ، والتى تعنى الضجر من المستعمر ٠

ومن ثم فان السنوات اللاحقة (١٩١٩ ــ ١٩٢٢) أى بدءا من الثورة حتى اصدار الاعلان الشهير ، لم ينفصل عنها الوعى أو التعبير الوطنى لدى توفيق الحكيم ، فاذا كانت تلك الفترة قد أفرزت أعمالا مسرحية مثل « الخطيب » عام ١٩٢٤ ، « والمرأة الحديثة » والتى مثلت سنة ١٩٢٦ ، ثم أوبريت « على بابا » الذى أخرج أيضا فى نفس العام ٠

ويشير تاريخ المسرح فى مصر ابان ثورة ١٩١٩ ٠ أن تلك الفترة كانت بمثابة عصـــــر ذهبى قد مر به المســـرح المصرى حيث نهضت ثلاث فرق مسرحية هى فرقة نجيب الريحانى » و « على الكسار » و « زكى عكاشة » والتى واكبها عطاء فنانين مصـــــريين مؤلفين وملحنين منهم : « أمين صدقى » و « سيد درويش » ٠

وقد استوعب المسرح الحدث الضخم الذى هز الوجدان الشـــعبى ، ومن ثم اتجه من الكوميديا الى الايحاءات الوطنية ، وأصبحت الأغانى المصاحبة بما أضفى عليها من قوة تتناسب والحدث الجليل ، تتردد فى شوارع مصـــــر تنادى بالقضية السياسية ٠

ولذلك فان توفيق الحكيم كما استلهم من ذلك المناخ العام مسرحية « الضيف الثقيل » ، أبدع أيضـــا عودة الروح ٠

وعندما نركز على تأثير ثورة ١٩١٩ على شخصية توفيق الحكيم ، سنجد أن ما ترتب عليها كان له بلاشك أثره الكبير على تكوينها ·· خصوصا اذا عرفنا أنه قد اعتقل فى سجن القلعة لمجرد مسيرته فى احدى المظاهرات التى واكبت تلك الثورة ··

ولذلك فقد عبر عن تلك التجربة من الثورة متمثلها فى شخصية محسن فى رائعته « عودة الروح · وكيف توجها بدور فى ثورة ١٩١٩ · بل توج معها « الشعب » جميعه · أى سائر أقاربه الذين عايشوه فى تلك الرواية ··

وقد توالت كتاباته وآراؤه السياسية والوطنية وحول ذلك أورد العديد من المقالات ، ففى سنة ١٩٤٠ وجه نداء الى المفكرين لمناصرة الحلفاء ضد دول المحور ·

كما ورد على لسان « حماره » فى أخبار اليوم فى أغسطس ١٩٤٦ م « نحن معشر الحمير لم نقبل أن نوقع بامضائنا على أن توضع القيود فى أرجلنا واللجم فى فواهنا · « وفى مجلة آخر ساعة » عدد ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ رفع راية المقاومة السرية المسلحة · كما يذكر له التاريخ أنه فى عام ١٩٤٧ رفض وسام فرنسا الذى أهدى له ، احتجاجا على الاستعمار الفرنسى فى دول المغرب العربى ··

وبمثل هذه الروح واصل الحكيم الذى عاش عالم التخوت والمسرح ، لقد أفاد كثيرا واستفاد · وعندما قيض له والده مسارا آخر ، وهو الايفاد الى فرنسا ، ليستكمل دراساته العليا فىالقانون ،كانت بمثابة مواصلة جديدة

فى المجال الذى اختاره ، فعاش عالم المسرح الفرنسى بل أدبه القديم والحديث واتجه كما تتجه البوصلة نحو الشمال ـ الى الأوساط الفنية والأدبية البوهيمية والى المقاهى التى كان الممثلون يغشونها ، وكثيرا ماكانت قدماه تقلانه الى مسارح « البوليفار » و « مونبارناس » و « مونمارتر » بدلا من قاعات المحاضرات فى السربون » .

وعندما أعاد الأب الحكيم توفيق الابن دونمـــــا أن يستكمل تلك الدراسة ـ ودخل عالم النيابة ، وتنقل بين المديريات مدنا وقرى . وتغلغل فى أعماق الانسان المصرى فى الريف والمدينة .. فكانت رائعته « يوميات نائب فى الأرياف » . وهذا المناخ أيضا ظهر فى أعمال أخرى فيما بعد « ذكريات الفن والقضاء » ثم « الصفقة »(٢) .

ويبلغ النضج مرحلته من هذا الأديب ، فما جاء عام ١٩٣٣ حتى صدرت أهل الكهف وهى أولى مســـرحياته الفلسفية ويبدو أن توفيق الحكيم فى تلك الفترة كما أغضب الانجليز منذ مسرحيته « الضيف الثقيل » ، وهو يغضب رؤساءه بأعماله الأدبية فى سائر الوظائف الحكومية التى تقلدها . وحتى عندما انتقل الى عمل أقرب لاهتماماته (مديرا عاما لدار الكتب المصرية ، ثم عضو فى المجلس الأعلى للفنون والآداب) الى أن عين مندوب دائم لمصر فى « اليونيسكو » بباريس .

---

(٢) مسرحية « لعبة الموت » . اللحق الخـــاص بحيـــاة لحكيم . ص ١١٨ . الناشر نادى القصة الكتاب الفضى (٨٨) .

ويتواكب خلال مراحل تنقله من موقع الى آخر الابداع المتواصل متمثلا فى النهاية فى دائرة المسرح ، اخذا على عاتقه ترسيخه فى أدبنا العربى ، ومسـايرا للتجديد فى هذا الفن ، مجربا الى أقصى حدود التجريب حاشـدا القضايا الفكرية الكبرى ، التى تتعلق بالانسان والقدر ، والانسان والحكم ، والانسان والبيئة بسائر معطياتها ٠

وهكذا عندما نحاول تحديد عصر توفيق الحكيم لا يكفى رصد ما عايشه أو تأثر به منذ مولده فى اليوم التاسع من اكتوبر ١٨٩٨ حتى يوم الأحد السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٨٧ م ٠٠ ومن ذلك أنه قد عاش عصر الملك « فؤاد » والملك « فاروق » وفترات جمهورية محمد نجيب وجمال عبد الناصر والسادات ، ورحل فى عهد مبارك ، شـهد الأحزاب كلها ، وهاجمها فى عهد محمد محمود ، وفى عهد النحاس ٠

وبرغم انه قد استقبل ثورة يوليو بحماسته ، وأبدى « ناصر » اعجابه بـ « عودة الروح » وعندما طلب الرئيس مقابلة الحكيم اعتذر ٠

وكما عاش عصر الهزيمة أعلن عودة الوعى وعاش عصر العبور ٠

رؤيــة من الداخــل

وربما تصلح هذه الرحلة عبر سيرة الحكيم ، لعرضه من الخارج ، ولكن عندما نحاول أن نجوس فى شخصيته من الداخل ، وقبل أن نمضى عبر هذا العالم الخفى من شخصية الحكيم ، فان جولتنا يتسنى لها شرف المحاولة ·· اعتمادا على الرصد والتحليل لمابرز من هذه الشخصية وما يمكن اســـــتنباطه من أفـــكاره وآرائه التى تتعلق بموضوعنا ··

وبداية أقف ازاء ما نشر تحت عنوان « اعترافات »(٣) ·· والتى صـــدرت بهذه العبارة : « على فراش المرض واســـــتجابة لمطلب من اكتوبر كتب توفيق الحكيم هذه الاعترافات ·· كان الحكيم يشعر فى هذه اللحظات أنه أقرب الى الموت منه الى الحياة ، ومن ثم جاءت اعترافاته صورة صادقة المشاعر ·· » ·

(٣) مجلة اكتوبر · العـدد (٥٦٢) ـ الأحـد ٢ اغسطس (آب) ١٩٨٧ ص ٤٠ ، ٤١ ·

واجتزىء من هذه الـ « اعترافات » السطور التالية علها تعين فيما ينبغى أن نبرزه من أعماق شخصية الحكيم وما قد يفيد فى تفهم هذه الشخصية فى ضوء تعادلية الشخصية أو الشخصية التعادلية ٠

يقول الحكيم : « فى حالتى هذه لا مكان لخوف أو خشية فهل أخشى من اعلان ما يعلمه الله تعالى ، وأنا أرجو لقاءه عن قريب ؟ ٠٠ والله يعرف اننى قترت فى عبادته ٠٠ فقد كانت صلاتى له داخل قلبى فى لحظات كثيرة من يومى وليلى ، وليس فى أوقات محدودة معدودة ٠٠ وكنت كبعض المتصوفين الملاعين الذين ظنوا أن هذا وحده يكفى ٠٠ ونسوا أن الخالق الأعظم لنا ولدنيانا وآخرتنا ينظر الى تصرفنا للدنيا والآخرة معا ، أما الآخرة فهى له وأما الدنيا ومانمارسه فيها فهو أيضا للبشر كافة ٠

ويقول أيضا عن فهمه للمال : « وهل للمال ودفع المال اهمية كبرى عندى ؟ سؤال مهم ٠٠ والجواب ليس المهم حب المال ، ولكن المهم العمل على اكتسابه والسير فى الطريق المؤدى اليه وطريق المال يختلف تماما عن طريق الفكر ـ واعمالى الأدبية كلها لم تكن من النوع الذى يأتى بالمال ٠٠ »

واذا كانت شائعتى « البخل » و « وعدو المرأة » اللتين أتصف بهما توفيق الحكيم فمن أهم ما جاء فى هذه الـ « اعترافات » هو مقولته : « فأنا أعترف انى لست طيبا ولا خيرا ولكنى أقسم أنى لم أضر أحد ، ولم اتسبب

عمدا فى الاضرار بمخلوق ، حتى الصرصار الذى يسير امامى لا احاول أن أدوسه بقدمى ٠٠ »

وبعد الاعترافات ، جدير بنا أن نســـتعرض الفقرات التالية :

« عندما تحلق روحى فى الفضاء اللانهائى فسوف أنظر الى هذا العبث (يقصد نتاجه الفكرى والأدبى) بشىء من السخرية والأسف على أن الحياة الجميلة قد ضاعت بهذا الشكل » ٠

و « ألم يكن بامكانى أن أعيش دون أن أكتب ؟ » ٠

ثم قوله ان ما يشــــغلنى الآن هو الموت وان الفكرة الوحيدة المسيطرة على هى انتظار الموت ، لم يعد عندى ما أقوله وما أكتبه ٠ لقد فقدت أسرتى وأنا أعيش الآن وحدى بعد أن فقدت ابنى قبل أن يعرف كم أحبه ، وفقدت زوجة لم تسمع منى فى حياتها لفظة حب واحدة ٠ لا أريد أن أكتب ولم أعد مقبلا على القراءة ٠٠

هذه المقولة ،قد برر بها قرار اعتزال الحياة الأدبية ٠

وبعد ذلك كانت أحاديثه الدينية الأربعة التى تضمنها آخر كتبه ٠٠

هذه المقولات وغيرها ، ما هى الا بعض المؤشرات التى يجب رصدها ، وأنا فى سبيل محاولة الخوض عبر شخصية توفيق الحكيم فى اطار التعادلية ٠ وهذا هو البعد الأول والأهم ، بعد الاستعراض التاريخى لها من الخارج ، ووقفة تأمل مع بعدها الثانى من خلال بعض مقولاته المباشـــرة وصولا الى بؤرة بعدها الثالث ٠٠

فى مواجهـــة الشر

وللحكيم فى التعادلية رؤيته عن الخير والشر : « أيهما ولد قبل الآخر ؟ ·· الخير أم الشر ؟ ··

فى رأيى أن الشر والخير ، كالليل والنهار ، يتعادلان ولا تدرى أيهما أسبق ·· وقد يكون الشر هو الأصل فى الانسان ، لأنه متصل بالوعى الأساسى للانسان : وهو الشعور بالذات ، وحب هذه الذات ··[٤] ·

وعن كراهة الحكيم للشر وكيف حرص أن ينأى بنفسه عن طريقه كسلوك ولا يدعى لنفسه فضل الخير ·· فيقول : « فأنا أعترف أنى لست طيبا ولا خيرا ولكنى أقسم أنى لم أضر أحدا ، ولم أتسبب عمدا فى الاضرار بمخلوق حتى الصرصار الذى يسير أمامى لا أحاول أن أدوسه بقدمى ·· بل أتركه يعيش حياته ، قد أبعده عنى بوسائل أخرى تفاديا من ضرره هو ··[٥] ·

(٤) راجع « الاسلام والتعادلية » · ص ١٦٨ · وما بعدها ·
(٥) الـ « اعترافات » · مجلة اكتوبر ·

ويكشف لنا عن جانب فى نفسه ينبذ فيه الشر وأنواع العنف الدموى من منطلق الحس والشعور الانسانى العام وهذا عندما ورد على ذهن « محسن » فى عصفور من الشرق(٦) :

« ان منظر الدم كان شيئا غير محتمل بالنسبة له ·· أنه لم ينس قط بعض أيام الثورة ·· ثورة ١٩١٩ ·· لم يكن قد أكمل بعد عامه العشرين ·· لقد كان أبوه المستشار يريده محاميا ·· وكان هو يرى أن رغبته كانت تتجه ناحية الفن والأدب ·· ولذا كانت مهمته أثنـــاء الثورة تأليف الأغانى الوطنية التى كان يلحنها بنفسه ، والتى كان يغنيها زملاؤه ـ شباب القاهرة خلف قضبان السجن بحماس ، بينما كان هو لا يحمل سلاحا غير سلاح الحماس ·· لم يكن يحمل ـ فى وسط الزحام ـ غير قلب مشتعل ، وأغانى وطنية حماسية ·

لقد رأى يوما منظرا من قريب بقى أثره مدى الحياة · رأى جنديا بريطانيا شابا يقف وحده ، وقد لمحه الثوار فأحاطوا به وضربه واحد منهم بقضـــيب من حديد على رأسه ، فشجها ووقع صريعا ·· الدم كان يملأ وجهه وقد تناثر مخه فى كل مكان ·· « لقد غشى الفتى محسن ـــ واعترته دوخة ، وكاد يغمى عليه ·· عندما ظهر الجنود البريطانيون مسلحين بالمدافع الرشاشة ·· تفرق الثوار فى الحوارى المظلمة ، وبقى « محسن » وظهره الى الحائط يحدق فيما يرى ··

---

(٦) رواية · صدرت عام ١٩٣٨ م ·

لقد كان من الصدفة أن الجنود لم تلمحه ·· ولما تنبه طار مسرعا يخطو فوق جثث القتلى فى حوارى مهجورة ·

ان منظر الشاب المضرج بدمائه لم يترك مخيلته ، لقد نسى أنه عدوه ·· عدو وطنه ·· انه لم يعد يذكرالا ذاك المنظر المحزن ·· ذاك الموت الفظيع ·· »

اذن فعلى ضوء هذا التصوير الادبى الرفيع يتحدد موقف الحكيم من الخير والشر ، له أصالته الفكرية التى تتناسب وطبيعة فكر الرجل ·· بل وتتناسب مع شخصيته التاملية ، ورؤيته الذهنية . وهذا ما رأينا ان نطلق عليه يوتوبيا جديدة ·· لأنها اقتربت من ابداع فكرى ، فواضح ما فى الكلمتين من استغراق لمكونات الشخصية ، ومردود هذا التكوين ، ومن ثم فهو يعيد تقنين النظرة العامة للخير والشر والجريمة والعقاب من منطلق رؤيته الشخصية والقناعة التى تتسم به هذه الشخصية – ولعل العبارات التالية تقدم لنا كشفا مناسبا عن طبيعة شخصية الحكيم وفلسفتها للخير والشر والجريمة والعقاب » ولكن المجتمع فى تطوره نحو النظام رأى أن ضرر الغير لابد أن يوازن ويعادل بفعل اخر هو : نفع الغير ، وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير وضعا هاما من أوضاع السلوك العام فمجد الخير وحقر الشر ··

ثم نراه يضيف : « من ياتى عملا يضـــر الغير ·· يستطيع أن ياتى عملا ينفع الغير ·· وهو لذلك ليس خيرا ولا شريرا ، ولا صحيحا ، ولا مريضا فى أحواله العادية ،

انما هو موضـــع تتعـــادل فيه وتتوازن هذه الحـــالات المتغيرة .. »(٧) .

وقد كان من اهم قضاياه البارزة ، والتى الح عليها فى رؤيته الشمولية للتعادلية ، هو الا يكون الفكر تابعا للعمل ، اى لا يكون المفكر تابعا للحاكم .

ولذلك فان الحكيم لم يفكر اطلاقا فى أن يتبع حاكما أو حزبا بل كان يحرص الحاكم على ارضائه ، ومما يذكره التاريخ فيما أورده لمعى المطيعى(٨) :

وكان جمال عبد الناصر حريصا على ارضائه ، واعتذر عن اللقاء الذى حمله اليه « محمد حســنين هيكل » .. وكان الأستاذ هيكل كلما رأى توفيق الحكيم يقول أمام الحاضـــرين .. هذا هو الرجل الذى رفض مقـــابلة عبد الناصر ، فيبادر الحكيم بتخفيف الوضع ، فيقول : ليس شخص عبد الناصر بل الحاكم .. أنا لم اقابل فى حيـــاتى رئيس حكومة وهو فى الحكم .. فيقول هيكل ضاحكا .. يعنى تريد منه أن يستقيل ليراك ؟ ..

كذلك ندد الحكيم فى أيام عبد الناصر ـ بأســـاليب التعذيب بالمواطن المصرى ، متمثلا ذلك فى تعذيب الدكتور عبد المنعم الشرقاوى ، فكتب « هذه لطخة سوداء فى جبين الثورة لا يمكن الدفاع عنها أمام التاريخ » كما أنه فى أيام

---

(٧) رجل من مصر . بقلم : لمعى المطيعى .
(٨) التعادلية ص ٩٨ .

السادات » وفى يناير ١٩٧٣ اعلن موقفه من سياسة الحاكم ، وذلك عندما جمع فى مكتبه بعض الكتاب والأدباء ورجال الفكر وكتب بخط يده البيان الشهير «حقيقة الموقف» ووقع عليه وبعده نجيب محفوظ ثم الآخرون وقد غضب السادات وعزل سياسيا كل من وقعه عدا الحكيم ونجيب محفوظ ..

وهذا الموقف الرافض للتبعية ، قد تأصل فى شخصية توفيق الحكيم ، ولقد عبر عن ذلك عندما كتب :

ابتعدت عن محيط السياسة العملية ورفضت الانضمام الى الأحزاب السياسية ، واعتبرت المفكر كالراهب ، مسوحه هى حريته ، وتحدثت عن البرج العاجى والاعتصام به ..ولم اقصد بذلك طبعا العزلة عن الحياة والانفصال عن المجتمع كما فهم البعض خطأ »(٩) .

---

(٩) الاعترافات . مجلة أكتوبر – العدد (٥٦٢) ١٩٨٧ م ص ٤٠ ، ٤١ .

موقف الحكيم من النظريات العالميــة

- في عالم العوالم
- بعيدا عن التناقض

موقفه من النظريات العالمية

والموقف الفكرى الذى تتسم به شخصية الحكيم ، خصوصا من الأفكار الكبرى التى تتعلق بالأنظمة العالمية كان قد تخير لنفسه موقفا محايدا ·· أو متعادلا ·· من منطلق رفض سيطرة فكر على مقدرات فكره وشخصيته ومواقفه حتى لا يضيع فى منطقة الابتلاع ··

فقدأصبح ما يشغل الحكيم هو الا تسيطر عليه فكرة من الأفكار حتى تلك النظريات الكبرى ، التى جعلت العالم قوتين احداهما غربية والأخرى شرقية ، وكل طرف يحاول ابتلاع الآخر ··

يقول الحكيم : « ان عهد الايمان بالنظريات قد ولى من حياتى ، أنا لم أعد أذكر الآن تفاصيل تلك الآراء ، التى كنا نتحسس لتنفيذها أو اعتناقها ، ولكن التقدير الشخصى للأشياء قد حل فى نفسى محل التأمين الشامل على كل ما كان يهز مشاعرنا من أفكار ، لا أستطيع اليوم أن انضم « الى ماركس » « أو الى سميث » ·· فكلاهما صادق وكلاهما كاذب » ·

ولا أستطيع أن أنضوى تحت لواء « الشيوعية » ، أو « الرأسمالية » فكلاهما مصيب وكلاهما مخطىء .. كل ما أستطيعه هو أن أستخلص من تاريخ البشرية وفى تجارب هذين المذهبين واصطدامهما بطباع الناس وظروف الحياة .. حقائق ثابتة أو قل عقائد شخصية .. ليس من السهل على احد أن يزحزها من نفسى .

أولى هذه الحقائق أو العقائد أن الثورة الروسية ليست سوى الشطر الآخر المكمل للثورة الفرنسية .

ثورتان دمويتان ارتكب فيهما الكثير من الجرائم باسم الحرية ..(١) . وهكذا يرفض توفيق الحكيم كلا الاتجاهين .. ففى الانحياز لأحدهما ابتلاعية ..

ولكى نضع أيدينا على رؤية الحكيم للتوازن أو التعادل بين قوة التعبير وقوة التفسير ..

فلابد أن نتمعن مقولاته التالية :

يقول توفيق الحكيم : « وقوة التعبير هى أيضا توازن وتعادل بين قوة الأسلوب وقوة الموضوع ..

والتعبير يشمل الأسلوب والموضوع : أى الشكل والمضمون .. به يمكن أن يتم الأثر الأدبى أو الفنى فى ذاته أما التفسير ، فهو الرسالة التى يحملها الأثر الأدبى أو الفنى بعدئذ للبشرية ، ليقول فيها كلمته عن وضع الانسان فى كونه وفى مجتمعه ..

---

(١) رحلة بين عصرين « ذكريات » . صدر عام ١٩٧٢ م .

والتعبير وحده قد يؤدى الى الفن للفن» فاذا أسرف فى الهيام بجمال الشكل والتانق فى المبنى على حساب المعنى والمضمون ..

والتعبير وحده كذلك قد يؤدى الى الفن الملتزم ، اذا أسرف في التعبير بمعنى خاص ومضمون معين ليس الى التحرر والاستقلال عنهما من سبيل ..

فالفن للفن هو حبس الفنان فى هيكل الشكل .

والفن الملتزم : هو حبس الفنان فى سجن المضمون(٢)

وليسمح لى القارىء ، أن أقدم له بعد تلك الطروحات، موقف الحكيم مباشـرة .. اذ أنه كان حريصا على أن يشرح هذه القضية ، فيقدم الاجابة فى كتابه « فن الأدب » :

فقد جاء الموقف مختلف كل الاختـلاف فيما يختص بانتـاجى أنا على وجه خاص فعلى الرغم من مناداتى بالحرية فان عملى فى أكثر كتبى هو الأدب الملتزم .. ولست أدرى أهذا راجع الى رواسب ماضينا وتاريخنا القديم أم الى طبيعتى الخاصة ؟ .. ان الذى أعرفه هو أنى منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشىء لنفسى أسلوبا جميلا يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين ..

هذا هو الفن للفن فى الأسلوب ماخطر لى أن أمارسه ولكنى أردت أن أتخذ من الأسلوب خادما لأهداف أخرى

---

(٢) التمادلية . تراجع الصفحات ١٠١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

غير مجرد الامتاع .. هذه الأهداف كما ظهرت واضحة للناس كانت قومية وشعبية واصلاحية فى « عودة الروح » وفى « عصفور من الشرق »[3] . وفى « يوميات نائب فى الأرياف » وفى « مسرح المجتمع » وكانت مذهبية متصلة بمصير الانسان كما لم تظهر بوضوح لكل الناس خصوصا فى مصر فى « أهل الكهف » وفى « شهرزاد » وفى « سليمان الحكيم » وفى « بجماليون » وفى الملك أوديب « .. الخ ..

فهذه الكتب لم تكتب لاظهار جمال الأسطورة كما فى « مجنون ليلى » لـ « شوقى » فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور وابرزت روعة الفن للفن نفسه انما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر ، لا غاية فى ذاتها فلم يكن الغرض منها رواية حادثة الكهف أو حكاية ليالى شهرزاد .. الخ .. بل وضعت كلها لخدمة قضية خاصة بالانسان ومصيره .. »

فأنا فى الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط ،بل لأفسر ..

واذا كان كتاب « فن الأدب » قد صدر فى ١٩٥٢ م[4] عمما جاء به وضمناه السطور السابقة ، يعنى أن الحكيم

---

(٣) يوحد شبه اجماع على أن شخصيتا محسن فى « عودة الروح » و « عصفور فى الشرق » هما شخصية توفيق الحكيم فى مرحلتين مختلفتين من العمر ، وفى بيئتين متباينتين ، واجع غرام الأدباء (عباس خضر) . ص ٢٠ وما بعدها . سلسلة اقرأ (١٥٧) يناير ١٩٥٦ م . الناشر دار المعارف . كذا الامر بالنسبة « ليوميات نائب فى الأرياف » ، ومن « ذكريات الفن والقضاء » اقرأ .

(٤) فن الأدب . راجع ص ٣٠٩ . الناشر مكتبة الآداب . القاهرة .

يكتب عن فترة قد رضى عنها كل الرضا ٠٠ وهذا يعنى ضـــمنيا رضـــاه عن المستوى الذى بلغه فكره وعطاؤه الابداعى ٠٠ وانه حقق لأدبه وذاته ما كان يتمناه من رؤية مفسرة لما يبدع فى اطار التعادلية أو توازن قوة التعبير وقوة التفسير "

فى عــالم العــوالم

وقدتثير شخصية الحكيم دهشة المتابع عندما تصدى بالرفض لكتاب الدكتور « رمســـيس عوض » الذى ألفه بعنوان : « صـــفحات مجهولة من مسرح توفيق الحكيم ١٩١٨ ـ ١٩٣٢ » (٥) ٠

ولا شك ان د ٠ عوض لم يغب عنه رأى الحكيم فى تلك الفترة ٠ وبالتالى فلا غرابة ان يرفض الحكيم الكتابة عنها بل ترفض دور النشر اصدار مثل هذا الكتاب ٠

ونحن لسنا بصدد مناقشة القيمة الأدبية أو الجهد النقدى لـ د ٠ رمسيس عوض ، ولكن مايهمنا هو رصد شخصية توفيق الحكيم فى ضوء هذا الموقف ٠٠

---

(٥) توفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧) ٠ نبيل فرج ٠ المكتبة الثقافيــة ٠

اذن فعودة معي الى عالم توفيق الصبى ٠٠ أى «محسن فى عودة الروح » سنرى كيف أنه كان يتعلق بـ الأسطى لبيبة شخلع » بل نجده ينضم فى اصرار الى فرقة هذه العالمة ويجول معها القرى والكفور كواحد من أفراد تخت الاسطى شخلع ويحرص على أن يكون له مكانة الـ «سنيد» مثل كل من العوالم : « نجية » « وحفيظة » و « سلم » العمياء ٠٠ فى حفلات العرس ، وقد حمل احدى الآلات التى تحدد هويته كعضو فى تخت الأسطى لبيبة شخلع(٦) ٠

لقد شب الصبى وهو متعلقا بهذا المناخ ، مشدودا اليه حتى عندما كان نائبا ، حاول أن يتحايل على شكليات وظيفته ومقتضياتها ليخرج الى عالم المشخصاتية ، وهذا ما عبر عنه الحكيم بعد ذلك أنا المحروم منذ زمن طويل من متع الفن الرفيع الذى أحبه وكادت تقضى على حياتى الشاقة بين جرائم الأرياف وجهالة أكثر الزملاء ٠

كما يركز على الحرية الشخصية المتعارضة مع مقتضيات الوظيفة « ما أجمل الحرية ولو لبضع ساعات ٠٠ حرية التنقل دون أن تترك لأحد عنوانك ٠ حرية دون أن يكون فى الثرك ساع أو خفير ٠ الآن أستطيع أن أعيش فنانا ٠٠ كما كنت فيما مضى بضع ساعات ٠ سأذهب الى التمثيل فى المساء ولن يكون هناك رئيس النيابة بالتأكيد » (٧) ٠

---

(٦) عودة الروح ـ الجزء الأول ـ راجع الصفحات ١٥٧ وما بعدها ـ الناشر مكتبة الآداب ـ طبعة ١٩٨٣ م ـ

(٧) من ذكريات الفن والقضاء ـ توفيق الحكيم ـ ص ٧ وما بعدها ـ سلسلة اقرأ (١٢٦) ـ

أن ما يجتره الحكيم فى تلك السطور ، هو تأكيد على انه قد ترسخ لديه أن هناك صراعا بين رغبتين مختلفتين ، يحاول أن يوازن بينهما ٠٠ ففي المجتمع الصغير ، نجد أن أسرته رافضة لانخراطة فى هذا السبيل ٠

ومن ثم فقد دفع به والده الى فرنسا لاستكمال دراسته العليا فى القانون وعندما انخرط فى جو الفن فى باريس وغـــرق فيه حتى أذنيه أوقف الأب عنه المال ليعيده الى مصر ، ويلحق بسلك العدالة وعندما يشده حنينه القديم الى عالم المشخصاتية بلهف وشوق يتحايل ليشاهد مسرحية « هارون الرشـــيد » ويخرج مع زميله عمر افندى بطل المسرحية ليجترا معا ذكريات الصبا وحب المسرح والفن ويحدثه عمر أفندى عنمسرح حداد والقرداحى ٠

لقد حوصر وحول بينه وبين الانخراط فى هذا المضمار طفلا ثم صبيا ، فشابا فرحلا ٠ كان هذا يأتيه من الخارج وعلى مستوى المجتمع الصغير متمثلا فى أسرته والمجتمع الكبير محددا فى مكاتب الوظيفة ٠٠ ثم نجوميته كواحد من الكتاب الجادين الذين يتعاملون مع الابداع فى أروع أشكاله وأسمى المضامين ٠

وكذلك ليس غريبا أن نجده لا يعترف اطلاقا بالسنوات الأولى لميلاده الفنى ككاتب مسرح ، وهى الفترة التى سبقت شهرته ، وما أصبح عليه منمكانه ، والتى سعى الدكتور رمسيس عوض الى تعريتها ٠٠

فقد أعرب الحكيم عن رفضه لتلك الفترة فى شــــبه اعتراف عندما كتب « فى حياتى الفنية جانب مجهول أردت

ألا أعترف به ، ورأيت أن أقصيه وأن أسدل الستار عليه ، لأنه فى نظرى اليوم لا يتصل بأدبى ولايجوز أن أدخله فى عداد عملى ، وذلك هو عهد اشـــتغالى بكتابة القصص التمثيلى لفرقة عكاشة حوالى سنة ١٩٣٢ »(٨) .

ومما يفسر هذاالجانب من شــخصية الحكيم وتطور رؤيته المبكرة للفن وانخراطه فى مجاله ، ما قد أورده فى كتابه « تحت شمس الفكر »(٩) ، وهو أيضاً يكشف ردة الفعل السلبية من كتابة القصص التمثيلى للمسرح فى تلك الأيام وخصوصا على مستوى المجتمع الصغير : « لقد كانت فجيعة لأبى المسكين أنه كان يسمع ويرى أنى أنسى صنعتى كمحام ، وأنحشر فى زمرة الممثلين أو أولئك الذين يسمونهم « المشخصاتية » والحق أنهم فى مصر ليسوا بعد من الطوائف المحترمة » .

---

(٨) مسرح المجتمع . نقلا عن مجلة القاهرة . ص ٣٤ . عدد (٧٥) . ١٥ سبتمبر ١٩٨٧ م .

(٩) صـــدر عام ١٩٣٨ .

الحكيم بعيدا عن التناقض

هل كان توفيق الحكيم متناقضا ٠٠ ؟

ونحن بصـــدد الموقف المتوازن بين الضـــدين أو المتناقضين مستهدفين الوصول الى التعادل ٠٠ فمن الجدير بنا أن نتصدى لما يزعمه البعض بادعاء تناقض الحكيم فى مواقفه على أساس المقابلة بين نظرة الحكيم والانتماء ، وبالتالى يسحبون على شخصيته تلك الصفة ٠٠

وهذا البعض يستند على ما يعتقده مثلما ذهب الى ذلك « أحمد محمد عطيه » فى كتـــابه « توفيق الحكيم اللامنتمى » ٠٠

لقد ادعى أن الحكيم قبل الثورة ، والبلاد فى مرحلة الكفاح من أجل الحرية من الاستعمار ، والنضال من أجل التطهير السياسى ، قد دعى الى نبذ العمل السياسى أو « حل » السياسة ، والتوجه نحو الفكر والكلمة ٠٠

ويدعى كذلك أنه فعل ما فعل « الحكيم» بهدف مهادنة النظام السائد فى مصر قبل الثورة ٠٠

وهذا بلا شك كلام مردود ·· فالحكيم قد كتب فى سنة ١٩٤٦ على لسان حماره فى « أخبار اليوم » بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٤٦ : « نحن معشر الحمير لم نقبل أن نوقع بامضائنا على أن توضع القيود فى أرجلنا واللجم فى أفواهنا » ·

والعودة الى أرشيف مقالات الحكيم أو أدبه ، نجد كثيرا من آرائه ترفض الظلم والظالمين ، ويتضح موقفه جليا من الملكية والأوضاع السائدة فى ظلها ··

بل انه قد أرهص بضرورة قيام الثورة ·· فقد جاء فى كتابه « شجرة الحكم » الذى صدر عام ١٩٤٥ » أنه من الضرورة مجىء ثورة مباركة كى تطيح بهذا الزيف وذلك النظام ، الذى كانت مصر تعيش فيه دون أمل أن تقوم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بانتصار المحتل للبلاد ··

وكان من الطبيعى كذلك عندما يمضى ليحاسب هذه الثورة ويقيم حصادها أن يكتب فى كتابه « شجرة الحكم السياسى فى مصر » : « كذلك الحال ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فقد أدت مهمتها باعتلاء زعيمها رئيسا للجمهورية واستقرار هذا النظام ، الذى جعل رياسة الجمهورية رياسة مطلقة ·· هذا النظام الدكتاتورى فى جوهره وحقيقته هو الذى هزته الهزيمة هزا وصفه الرئيس بانه شرخ · وكان طبيعيا أن يتسع الشرخ وينهار النظام · وماحدث بعد ذلك حتى اليوم يعتبر من قبيل التقلصات العصبية العاطفية أو يعتبر من قبيل الدوار الذى يصاحب الوحم ايذانا بميلاد مصر جديدة » ·

فاذا كان هذا هو موقف الحكيم بكل جلاء أستطيع القول ان علة أحمد محمد عطية .. بأنه لميستوعب الحكيم جيدا فادعى ما ادعى .. ولا أعتقد انه لم يفهم مايقصده الحكيم ، أو ربمالم يتابع المنهج العلمى فى بحثه فجاءت أراؤه بذلك الشكل التعسفى .

ولعله يعود الى التعادلية ،ويقف ازاء مقولة الحكيم عن الفكر والعمل ، أى المفكر الرافض أن يكون تابعا للحكم أو الحاكم ، لأنه عين الفكر الذى يبصر من خلاله المحكوم وأمله ولسان حاله .. يقول « لمعى المطيعى » : « كانت الفكرة المسيطرة على توفيق الحكيم ، وهى فكرة صحيحة الى حد كبير أن الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالى انه يريد أن يسمع منه تأييدا لا اعتراضا ..

ويؤكد « لمعى المطيعى » على ان ما جاء فى عودة الوعى عن هذه الفترة ليس تناقضا ، ولا دلالة على موقف شخص بحت من الحاكم ، حيث أنه لم تكن هناك خصومة من جانب الحكيم أو من جانب عبد الناصر ، وهذا ما يجعل لما كتبه الحكيم فى « عودة الوعى » قيمة خاصة ، بتناول الحكيم أحداث يوليو فى رقعة زمنية فسيحة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى رحيل عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. والمهمة الكبرى لحامل القلم هى الكشف عن الحقيقة » ..

شخصـــية الحكيم والتعادليــة

- الشخصية المبدعه

شخصـــية الحكيم والتعادليـــة

بداية ســـنعمل على استشفاف ملامح التعادلية فى شخصية الحكيم ، وذلك من خلال مقولاته الفكرية سواء فى التعادلية وفى التعادلية والاســـلام ، ومن خلال أدبه وأبرز مواقفه .وما قد يعين على تحديد هذا المنحى فى شخصيته اذن فجدير بنا أن نعاود رصد الملامح الأساسية للشخصية التعادلية فى رأى توفيق الحكيم ، التى أوردها فى كتابه « التعادلية» ونوردها بشىء من الايجاز ..

فالحكيم يرى أن الشخصية التعادلية هى التى :

- تعتقد أن الوجود هو التعادل مع الغير ..
- فهل كان كذلك ؟ ..
- وتعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادل للعمـــل ومسئوليته ..
- فهل استطاع الحكيم المفكر أن يحقق ذلك ؟ ..
- وتعتقد أيضا أن الخير والشر وضعان للانسان

● فأين ذلك فى شخصيته ؟ ..

● وتعتقد - كذلك أن العقل بمنطقه وشكله يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وايمانه .

وهذا أمر جدير أن نتلمسه فى عالم شخصيته الفكرية او المبدعة ..

● اذ كنت ترى - (كتعادلى) - أن الأثر الأدبى أو الفنى يجب ان يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير .

● واخيرا يقول الحكيم : « لا يوجد انسان ضعيف . ولكن يوجد انسان يجهل فى نفسه مواطن القوة المعوضة » .

● فهل نجده يتلمس ذلك فيما يعن له شخصيا من مواقف ؟ ..

ويمكن لنا أيضا ، فى رحلة مع الاسلام والتعادلية ، أن نضع أيدينا على الرؤس التى تخيرها الحكيم ووقف ازاء فحواها اسلاميا ، وهى أيضا ما يجب أن تتسم به شخصية الانسان ، ليكون له الشخصية التعادلية .

فاذا كان الحكيم قد وضع ركائز أساسية كمنطلقات عامة للتعادلية فى الاسلام ، فاننا بذلك نرصد منها(١) :

التعادلية والطغيان : « فالتعادلية تقوم على عدم طغيان

---

(١) الاسلام والتعادلية . توفيق الحكيم . ص ١٦٨ وما بعدها .

موجود على موجود ، سواء فى الأرض بين الاجسام أو فى السماء بين الأجرام » ..

وعن تعادلية الاســـلام يقول : « والاسلام يقوم على الايمان بوجود الدنيا ووجود الآخرة ، ولكل وجود شأنه المستقل ، فالدنيا وجود يعمل فيه الانسان كأنه يعيش أبدا والآخرة وجود يعمل له الانسان كأنه يموت غدا » .

ولا طغيان لاحـدهما على الآخـــر الى حد الافناء والالغاء .

وعن ممارسة التعادلية : « ولكن ممارسة التعادلية فى الحياة تســـتلزم وجود المتناقضـات فالحياة مكونة من عناصر ، ومن العناصر ما يحاول بعضها افناء البعض ، سواء فى الفرد بتعارك قواه وصـــراع جراثيمه أى فى المجتمع بتدافع تجمعاته « ولولا دفع الله الناس بعضـــهم ببعض لفسدت الأرض » .

وحول العقل جاء فيما روى عن الله تعالى فى حديث قدسى مخاطبا العقل » .. ما خلقت خلقا أعجب الى منك ، وعزتى وجلالى لأكلمنك فيمن أحببت ولانقضـــنك فيمن أبغضت » . كما قال الله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء . « وقل الرسول صلى الله عليه وسلم » عن « الفكر والتفكير » : « لا عبادة كتفكير » .

ثم : « نفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

وحول الايمـان ، يرى أنه منـاط مالا يقبله العقل :

« العقل محدود بحدود القدرة البشرية ·· أما الايمان فهو متصل بالقدرة الالهية غير المحدودة · »

وعن الدين والدنيا : « جمع الاسلام بين الدين و الدنيا ، أى بين شئون الروح ودواعى الجسد » الى ماجاء : « وهذا الجمع هو ما يميز طبيعة الانسان الذى يتغذى روحيا بغذاء نورانى وجسديا بغذاء مادى ولهذا كانت فطرة الانسان هى جوهر الاسلام فى توازنه وتعادليته · »

فاذا كانت هذه من أبرز المحاور الجوهرية التى تتعرض لها النظرة التعادلية فى الاسلام ·· فهناك أيضا من الركائز ما يتسم وروح التعاليم كالأمر فى الاعتدال ، وعدم الغلو فى الدين . والموقف من الرأى الاخر الى غير ذلك ·

الشخصــية المبدعــة

ومحاولة التعرف على شخصية الحكيم تعادليا ، مغامرة بلا شك ، حيث أنها تقتضى البحث عنها وتعقبها فى اطار ابداعه الغزير • أو بمعنى أبعد اننا ازاء شخصية تستغرقها طبيعة الفنان المتمثل فى شخصيته اعتاد صاحبها أن ينظر الى الاحداث السياسية والى الأشــــخاص الاعزاء لديه ، والى المواقف الخاصة والمواقف القومية ، خلال فنه •

وهذه المقولة تقودنا الى حقيقة أن للحكيم شــــخصية محققة لذاتها « فكان الفن ـ والفن المسرحى بوجه خاص ـ ملاذالتوفيق الحكيم منقسوة الحياة الواقعية ، ففيه الأمل حيث يمنى نفسه بتلك الجنة ، التى بهرته على مســــارح الفرق التمثيلية المتجولة ، وهو بعد صبى فالفن له ـ كما كان يشتهيه أرسطو طاليس ـ مطهر لنزوات نفسه ، ومحقق لها فى دنيا لا تخضع للمصادفات ، وانما تخضع فيها ارادة الغير لارادته الشخصية ، أو لارادة الفنان الكامن فى نفسه على الأقل • »

وللحكيم موقفه الفكرى المحدد لكينونة الانســـان ، وتحقيقه لارادته ، وهو فى ذلك يأتى بما يعارض نظرية « نيتشة » ، حول الســـوبرمان ، أو الارادة المطلقة ٠٠ فالحكيم يرى أن الانسان ليس صاحب السلطة الأوحد ولا هو حر مطلق الحرية ٠ « وانما تنبع عظمته من نضـــاله الباسل فى سبيل الانتصار فى حرب مستحيلة ضد القوى غير المرئية المسيطرة على مصيره »(٢) ٠

وهذا ما يؤكده الحكيم فى اطار التعـــادلية ، عندما يقول « انى أومن بأنى لست وحدى ٠٠ لأنى أشعر بذلك ولم افقد ايمانى لأنى رجل متعادل »(٣) ٠

وهذا بلاشك اقرار من الحكيم بأنه يرى أن الوجود هو التعادل مع الغير ٠ بل التعادل بين العلم والايمان وهذه المقولة « لم أفقد ايمانى » تحقق لنا رؤية لا يمكن الخلط فيها مع هوية الرجل ٠٠ وهذا ما يؤيد موقف الكاتب الكبير « ثروت أباظة ، فى تفنيده مزاعم الدكتور « لويس عوض » عندما كتب الأخير عقب وفاة الحكيم واصـــفا اياه بأنه علمانى وعقلانى ٠٠ والمقصود مفهوم ٠٠

بل ان الحكيم قد أكد على هذه الهوية قبل وفاته بخمسة عشـــر عاما عندما كتب « ان مأســـاة الغرب هى اختلال التوازن لمصلحة طرف واحد هو العلم وهو العمـــل وهو العقل »(٤) ٠

---

(٢) لعبة الموت ٠ توفيق الحكيم ٠ ص ١٢٨ ، ١٤٠ ٠
(٣) التعادلية ٠ توفيق الحكيم ٠ ص ٢٣ ٠
(٤) رحلة بين عصرين ٠ توفيق الحكيم ٠ صدر عام ١٩٧٢ م ٠

ولا يخفى ما فى زعم د . لويس عوض من المجافاة لجانب عظيم من الفكر الاســلامى ، الذى أضناه توفيق الحكيم على ابداعاته البارزة ومنها : « محمد » و « أهل الكهف » ، « وسليمان الحكيم » ، أرنى الله » ،التعادلية والاسلام ، « الأحاديث الأربعة » و «مختار تفسير القرطبى» وهى لم تخل من موقفه الايمانى الذى يرفض وجهة نظر الدكتور لويس عوض .

بل ان توفيق الحكيم يؤكد على التعادلية بين الايمان والعقل فى ميزانه وفى قناعته الشخصية ، فقد كتب(٥) : « فالاسلام اذن تعادلية لا يطغى فيه العقل فيحجب نور الايمان ، ولا يطغى الايمان فيشل حركة العقل ، والعقل سلم يصعد عليه بالمنطق البشرى ، والايمان شعاع يضىء بغير دليل أرضى » .

كما أن توفيق الحكيم كتب مضيفا : « جمع الاسلام بين الدين والدنيا ، أى بين شئون الروح وداعى الجسد .. أى أنه الاتصال بالله والصلاة والصيام والاعتكاف ونحو ذلك من شئون الروح لا ينفى الاتصـــال بالمرأة والمأكل والمشرب ونحو ذلك من ضرورات الجسد . وهذا الجمع هو ما يميز طبيعة الانسان ، الذى يتغذى روحيا بغذاء نورانى وجسديا بغذاء مادى ، ولهذا كانت فطرة الانسان جوهر الاسلام فى توازنه وتعادليته .. »

وقد كتب الحكيم كذلك فى كتابه « التعادلية » مدافعا عن الدين عندما سيطر العقل ، مبرزا نتائج ذلك « ان

---

(٥) الاسلام والتعادلية ، توفيق الحكيم ، ص ١٣٧ ، مكتبة الاداب ، طبعة ١٩٨٣ م ، القاهرة .

التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أى بين نشاط التفكير ونشاط الايمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت ، فيوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى(٦) .

ثم ها هو يؤكد هذه الرؤية فى اطار الارادة : « ان ارادة الانسان فى كفة تعادلها الارادة الالهية فى كفة اخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادلها الايمان فى كفة »(٧) ..

كما ان توفيق الحكيم فى كتابه الأحاديث الأربعة ، لم يترك الأمر لأحد لبعده علمانيا فى تلك المناقشة الدينية فهو يصفها بـ « انها مناجاة بلغتى الخاصة ، وثقافتى الخاصة تعبيرا عن حبى الخالص لربى » .

كذلك يوضح فى المقدمة ان الخلاف الأساسى هنا بين علماء الدين ورجال الفكر المعاصر : هو أن علماء الدين هؤلاء يعتمدون فقط على العلم والثقافة ، التى كانت موجودة فى عهد النبوة بأسانيدها المعتمدة على هذه الفترة .

.. اما رجال الفكر فيعتمدون على ذلك ايضا ، ويضيفون اليه كل ما وصلت اليه العهود الحديثة من علم وثقافة ..

.. ويختتمها بـ « والله تعالى اكبر ، وعلمه اوسع ، ورحمته اعمق وغفرانه أرحب .. »(٨) . بل اننا نجد

---

(٦) التعادليه ، توفيق الحكيم ، ص ٢٣ ، راجع تعادلية الحكيم والاسلام من هذا الكتاب .

(٧) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٨) الأحاديث الأربعة ، المقدمة ، الناشر مطبعة الآداب ، مايو ١٩٨٢ م .

فصلا بعنوان الاسلام عند توفيق الحكيم ، يترجم نشاته الدينية ويسجل عطاءه ومواقفه النابعة من الاسلام »(٩) ٠ ولا ينبغي أن نؤطر ايمانية توفيق الحكيم بالمفهوم الغالب على شخصيته أو أعماله ٠٠ بل سنجد أن هذه الشخصية ذات الفكر والذهنية المهيبة تمارس المعتقدات المتعلقة بالدين الاسلامى من قريب أو بعيد بنفس الرؤية والتأثر الذى نجد عليه العامة ايضا ، ونظرة على اهدائه روايته ، «عصفور من الشرق » سنجده يقرر : « الى حاميتى الطاهرة السيدة زينب » ٠ ولم يفعل ذلك مكتفيا ٠٠ بل سنجده قد ضمن متن الكتاب توظيفا لهذا الاعتقاد ، الذى يقدمه فى شىء من الخشوع والاجلال : « انه لن ينسى السـيدة زينب الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات ٠٠ ان لها وجودا حقيقيا فى حياته ٠٠ مامن مرة وقع فى شدة ، الا وجد العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبية ٠ كل نجاح ظفر به فى الحياة هو دفعة من يدها وكل عطف نظرة من عينيها، وكل ابتسامة من الحظ انما هى ابتسامة من شفتيها ٠٠

انه يتخيل هيئتها ووجهها وملامحها ٠٠ ويعتقد انها فى السماء بردائها الأبيض انما تنظر اليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها ٠٠ كان هذا هو كل عملها ٠٠

ويواصل « الحكيم » تعمق تأثيرها على شـخصيته سلبا وايجابا و « محسن لسان حاله » : لكن هناك ساعات تتجهم له فيها الحالة ، وتقسو عليه الظروف ويرى كأن « السيدة » قد نسـيته ، فيفطن ويذكر لوقته أنه فى تلك الساعات وتلك الظروف ، انماهو الذى كان قد نسيها ٠٠ نعم ، انها لا تنسى الا من ينساها ٠٠ اننا أهل الأرض ـ

---

(٩) المرجع السابق ص ١٧٣ ٠

لنشغل أحيانا بما نصادف من فوز أو متعة ، فنقع فى غشية من غرورنا ٠٠ ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها ٠٠ عند ذلك تتركنا السماء فى حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة ، فلا نستيقظ ، ونرى ما صرنا اليه ، الا يوم نحتاج الى حرارة العزاء والى العطف العلوى ٠٠ ذكر الفتى كل ذلك ٠٠ لقد كان مسجد « السيدة زينب » هو المكان الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس ٠٠

وكانت السيدة ، هى التى تقلب له صفحات الكتب ، فيما خيل اليه . وكانت هى التى تصبره وتشد عزيمته وهى التى كانت تجفف بأناملها الرقيقة النقية دموع حبه الأول ، والامه الأولى ٠٠ انه لم يكن وحيدا ٠٠ آه ٠٠ ما أقوى الانسان الذى يعتقد أن له صديقا ونصيرا من أهل السماء ٠٠٠

انه كان يحملها نصيبها من التبعات ٠٠ اذا أخفق فى خطوة فان السيدة هى التى تخلت عنه ولعلها أرادت هذا الاخفاق لحكمة لا يعلمها هو واذا وضع أمله فى شىء اتجه اليها ضارعا ، أن تقف الى جانبه وتضم همسها الى همسه، وصوتها الى صوته فى رجاء « الله ٠٠ »(١٠) ٠٠

لقد كانت السيدة زينب لديه بمثابة القوى المعوضة لما يمكن أن يعتريه من ضعف وبلا شك أن هذه الفقرات جديرة بوقفة وتأمل شديدين ٠٠ وانى أجد فيها ما يدفعنى الى دعوة الأستاذ الدكتور لويس عوض للرجوع اليهما والى غيرهما ٠٠ رجوعا يقصد منه المراجعة لما كتبه فى علمانية الحكيم المزعومة ٠٠

---

(١٠) رواية « عصفور من الشرق » .

بين الضعف والموت ..

توفيق الحكيم بين الضعف والموت والقوى المعوضــة

لكل ما سبق من حيثيات فمن الطبيعى أن يرفض توفيق الحكيم ، تلك الاجتهادات من الدكتور رمسيس عوض والتى لا تبرأ فلا نعتقد أنه قد فات الدكتور عوض نفور الحكيم من تلك الفترة ، التى يعتقد أنها تقلل من شأن نتاجه الأدبى العظيم ، اذا أدخل تلك الـكتابات فى عداد أعمـالـه الابداعية ..

ولكن هل ياتى تصرف الحكيم عن شخصية تحمـل جوانب من الضـعف .. ام أنهـا تنزع نزوعا يحسب على القوة المعوضة لديه ..

فاذا كان نتاجه الأول يمثل ضعفا .. فان التعويض جاء بعدئذ فى زخم وقوة ابداعية تعويضية انفرد بها ، بل جعلت له موقعا رياديا فى المسرح العربى أم تراه يخشى التوظيف من البعض لتلك الفترة ، توظيفا يحمـل المعنى الابتلاعى .. ؟؟

ولا نعتقد أن توفيق الحكيم قد نزع هذا النزوع ، من

منطلق تضخم الذات عنده وبروز ذلك فى شخصيته على ضوء ما سبق أن طرحنا من تعاليه على فترة من حياته وانتاجه ، ورفضه سيطرة « الأنا » عليها ··

فاذا كانت تلك الفترة قد حددها بما سبق عام ١٩٣٢، فانه أيضا من الثابت تاريخيا ·· أن رائعته « أهل الكهف » أول ما ظهر فى العام التالى لذلك التاريخ ، أى أن ميلاده الثانى فنانا أدبيا بدأ يواصـــل الصعود منذ ذلك التاريخ ففى نفس العام ظهرت أيضا عودة الروح ، ثم فى عام ١٩٣٤ صدرت مسرحية «شهرزاد» ·· وصولا الى مسرحية « محمد صلى الله عليه وسلم » فى عام ١٩٣٦ وهى سيرة حوارية بلوغا الى روايته الشـــهيرة « يوميات نائب فى الأرياف » ··

فهذه وغيرها تمثل الميلاد الثانى للابداع الباهر عند توفيق الحكيم ··

ولكن لا نعتقد ان موقفه من مرحلة الميلاد الأولى ، جاء نتيجة لتضخم فى ذاته ، وقد عبر عن ذلك فى قصة حوارية بعنوان « حقوقى على نفسى »(١) يعلن رفضه أن يتسلط عليه تضـــخم الذاتية ، ويبدى المقـــاومة ·· حتى يظل لشخصيته التوازن والا تنعكس على الكاتب قيمة تاتى من خارج العمل الأدبى ··

---

(١) نشرت ضمن « عهد الشيطان » ـ مجموعة قصص قصيرة ـ ط ٢ ، الناشر مكتبة الآداب ـ عام ١٩٣٨ ـ القاهرة

وقصة « حفوقى على نفسى تقدم حوارا مع أحد معجبيه ·· حول واحـــد من أعظم كتاباته وهو « أهل الكهف » الخالصة كما وصفها الزائر ـ فرد عليه المؤلف « انى أرجو ممن يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة أن يقرأها بعد عشرة أعوام · فان استطاعت أن تحتفظ بسحرها عشرة أعوام أخرى فقط ·· حق لك أن تعجب وأن تغتبط· »

ثم يدور حوار قصـــصى حول قيمة العمل الأدبى ، أطرافه الكاتب المبدع لـ « أهل الكهف » وصديقه الكاتب المحايد والقارىء المعجب ··

فيقول الكاتب المحايد معاتبا له :

ـ « ليس من حقك أن تصدر على نفسك أحكاما أمام الناس ، انك مادمت قد استطعت أن تخلق للناس أوهاما جميلة وأحلاما حلوة يعيشون فى جوها ، فان من الاثم أن تخرجهم منه بكلمة ·· الخ ·· »

« ياللعجب : أليس لى الحق اذن أن أهدم نفسى انه لجنون أن أتصور أن ليس فى استطاعتى أن أهدم نفسى » ·

بلا شـــك أن هذه الفقرات ، قد تلمح الى جانب أو جوانب فى شـــخصية توفيق الحكيم ، وما يعتلجها من صراع بين الضعف والقوة المعوضة ·· بين الا يستغرق الاعجاب بما يصنع ، والا يســتحوذه تضخم الذات ··· ويصبح فريسة الابتلاعية ··

انه يريد موقفا متوازنا ·· أى متعادل بين ما يصنع ، ومايمكن أن يصنعه به ابداعه او الآخرون استنادا الى هذا الابداع بل انه يستنهض القوة المعوضة ، انطلاقا من

يقينه بالصيرورة ، التى يمكن أن تتخلق من قيمة العمل الأدبى ·· وتعينه على البقاء ·

ان هذه القوى المعوضة تبرزها رؤية يقينية ، تمكنت ذهنية الحكيم وقناعته بتوظيفها فى مواجهة أى عامل من عوامل الضعف التى تحاول اخضاعه او خداعه ··

● وللموت ·· قضية شغل بهاال حكيم من حوله ·· أى أمر موته هو ، كن يبدو أنه كما كان فى حـــواراته الفكرية الدائبة فى حوار مســـتمر مع الموت فى آخـــر سنواته ··

حتى انه كلما مضى الى مكانه من غرفة الانعاش فى مستشفى المقاولون العرب يرقد على سريره شبحا ينتظر الموت · الا أن ذلك الانتظار يطول بينهما ، ويدخـــل فى حوارات مع الموت سواء فيما اطلق عليه وصـــية توفيق الحكيم التى احتشد لها الأطباء من حوله يسجلونها ··

ولكن على ما يبدو أن فى داخله قوى كبرى على مواجهة الموت وعدم هيبته أو الخوف منه ·· حتى نجده يحتفل وهو فى جناحه بمستشفى المقاولون العرب بعيد ميلاده الـ ٨٦ . وتكلم فى هذه المناسبة كلاما يعنى الكثير : « ·· وأنا اشكر ربنا على أن اعطانى مهلة مد فى عمرى ·· أعتقد أن المهلة لن تكون طويلة ، لكن كل ما يفعله الله بنا احنا راضيين بيه وارادة الله هى ما نخضع لها جميعا برضاء وتسليم واقتناع · فما يفعله بنا الله دائما هوالخير ، فهو لا يريد لمخلوقاته الا الخير » ··

ومن أقواله أيضا ذات المغزى فى تلك الحالة :

« ليس عندى جديد بعد هذا العمر الطويل » و « وأنا ميت .. متوقف عن الحركة .. صدر ضدى حكم بالحياة »

وقبل أن توانيه المنية بأيام معدودات رد على سؤال : هل يخاف من الموت ؟

فأجاب : لا .. لماذا أخاف منه .. هو راحة . أنا عندى أحسن وقت أحس فيه بقيمة الموت هو النوم عند الحادية عشرة مساء .. لكن بعد ان أفرغ عقلى من كل المشاكل حتى الصباح فأعود لها . » .

لقد أصبح الأمر بالنسبة له من الأمور الاعتيادية ، أو المواجهة المزمنة ، وقد بلغ هذا العمـــر وتلك الصـــحة المتدهورة .

وتوفيق الحكيم فى موقفه من الموت رجل اعتقـــادى يؤمن بالقضاء والقدر ، ومن ثم فهو دائما مســـتعد لأن يواجه الموت ..

ومن الواضـــح فى منطق الحكيم ، وفى أدبه أن له فلسفته من الموت وهى لا تنفصل عن موقفه الايمانى .. فهو يقول فى كتاب « التعادلية والاسلام » : ورأيت ان ما يمكن جعله أساسا لفلسفة عربية اسلامية هو ما نشأ من عقيدتنا التى تقول للانسان أن عليه أن يعيش فى عالمين أى أن يعيش فى الدنيا كأنه يعيش أبدا ، ويعيش للآخرة كأنه سيموت غدا .

وهذه المعـــانى وغيرها هى ما كانت تبدو فى نظرة الحكيم الى الموت ·· بل انه قد تهيأ لمواجهة الموت مواجهة المقبل عليه غير المدبر ، الطالب له لا المطلوب ·· حتى كان يستنكف عودته من المستشفى بعد كل زيارة لغرفة الانعاش ·· لأنه يثقل على من يعرفه ومن لا يعرف ·· حتى انه لم يعجب لذلك الشاب الذى استعجل موت الحكيم ·· ليفسح الطريق للجيل اللاحق ··

لقد ضاق من الموت الذى لا يدرك كلاهما الآخر ·· والملاحظ أن الحكيم فى مواقفه الحياتية ، التى تهتم بالموت واكبها دائما مناقشته الموت فى العديد من ابداعه الأدبى ·· فقد ذكر على لسان « ميشلينا » فى أهل الكهف » : أن أية حياة منحة ·· وأثمن منحة تعطى لمخلوق هى الحياة · بمعنى أنها لم تكن شيئا مملوكا ازليا وأبديا ، ولكنها مجرد منحـــة ، وهى بهذا المعنى مـلك الذى منـــح وله حق الاسترداد ··

وقد عالج توفيق الحكيم مفهوم الحياة والموت والبعث فى الكثير من أعماله مثل : « دقت الساعة » وفى كتابه « فن الأدب » · وقد شغله أمر البعث كما فى أهل الكهف ، شهرزاد ، نهر الخلود ، وتحديات سنة ٢٠٠٠ ، وغيرها ··

فالموت هو موظف ، كما ورد فى مجموعته القصصية « دقت الســاعة » كأى موظف فى شبكة الكهرباء ، جاء ليقطع التيار عمن انتهى اشتراكه وعليه أن يواجه الظلام ·

وهذه النظرة وغيرها للموت في صـــوره وأسبابه المتباينة ، تتسق تماما ومنظور التعادلية .. الذى جعل الموت رديف الحياة(٢) .

وعندما ماتت زوجته ..

وعندما توفى ولده الوحيد ..

لم يرضخ للفاجعة .. ولم يطلق أحزانه عليهما ..

واعتبر الأمر من المسلمات ، التى يجب أن يعترف بها البشر ..

أليست ــ الحياة ــ منحة .. وقد اســـتردها المانح عندما شاء ..

---

(٢) راجع ص ٤٦ من هـــذا الكتاب ، خاصـــة ما ورد بشأن « السابحة وفريقها » .

من ضعف المحب الى القوى المعوضة

توفيق الحكيم من ضعف المحب
الى القوى المعوضة

ولعلنا نهتدى الى عظمة اكتشـــاف الحكيم للقـوة المعوضة فى أعتى مواقف الضعف ، وعودة الى سـيرته المتمثلة فى (محسن) أيام الحب والفن فى باريس ••• سنجد أن الصفعة التى انهالت على مشاعره من الحبيبة ، والطعنة النجلاء التى سددتها الى قلبه ، كانت كفيلة بتحطيم نفسه ، واهدار عواطفه •• ولنقرأ معا ذروة مابلغه موقفه من مهانة ، وعندما أهملته « سوزى » فى لحظة وداست على كل ما كان بينهما من حب شغوف وعشـــق ملهوف وليال سكرى بالانتشاء • •فجأة ، ضربت بكل ذلك عرض السماوات والأرض ، عندما ظهر أمامها « هنرى » ـ حبيبها السابق ـ لقد تبدلت ولم تعد تلك التفاحة •• حتى تفاحة الأرض التى بداخلها الدود ، انك تحملينى من الاذلال مالا أطيق نعم ينبغى أن أقول لك : ان ما تصـــنعين بى الآن لكثير ، وليس الذى يعنينى من الامر هذا الحب الهائل الذى ظهر فجأة السـاعة فجرك ، وجعل منك تمثالا من الشمع ، فأنت حرة فى شئون عواطفك ، ولايدفعنى الى هذا الكلام الم أو غيرة • •حقيقة ان حالى الآن لا تدعو الى

الاغتباط والارتياح ، ولكنى أنا أيضا حر فى شئون عواطفى .. ما أسألك عنه الساعة هو أن تفكرى قليلا فى أمر موقفى، وأن تنقذى على الأقل المظاهر وأن تعامليني فى شيء من البر والكرم ، وألا تجعليني ذليلا أمام حبيبك أو خليلك ، الا اذا كنت تقصدين ذلك ، وكان هذا هو السبيل الذى ترتفعين به فى نظره ، وتصلين به الى عنايته وحسن التفاته .. وبعد الا تقولين شيئا ؟ ..

أمصرة أنت على هذا الصمت المهين .. ؟ الخ(١) .

أنه لم ينس انها لم تعره التفاتا وقد أبدت استغراقا فى تأمل صور مجلة « الالستراسيون » .. وهى على المقعد المجاور له .. وحبيبها « هنرى » يقف قبالتها ..

لقد ظل محسن ـ لفترة ـ يستمع كل صباح لعين أغنية « كارمن »(٢) :

« الحب طفل بوهيمى لا يعرف أبدا قانونا » .

ثم يعاود قراءة رباعيات الخيام ، ويتعزى بقوله :

اذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم

---

(١) هناك شبه اجماع على أن شخصية « محسن » فى عودة الروح ، و « عصفور من الشرق » ، هما شخصية الحكيم فى مرحلتين مختلفتين من العمر ، وفى بيئتين متباينتين ، راجع غرام الأدباء (عباس خضر) ، سلسلة اقرأ (١٥٧)، سنة ١٩٥٦ ، وعدد الهلال الخاص عن الحكيم (فبراير ١٩٦٨) .

(٢) عصفور من الشرق ، الفصل الرابع والعشرون ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

فابتسم لقدر اذا بطش بك

« ولا تبطش بأحد ! •• »

وضاعت المساعي دون جدوى ••

لقد حاول وحاول •• حتى قرر الاعتراف بالهزيمة •• فكتب اليها :

معذرة هذا السلوك المعيب منى انما أنا رجل شريد ، طرد من قصر « الحب » السحرى ، فهو يلجأ فى يأسه اذا خبى الليل الى الحيطان والأفاريز •• ولقد فكرت بالفعل فى ترك هذا النزل ، والانصراف الى شأنى ربما فعلت ذلك فى يوم قريب •• لكن حتى الآن لم أقو على ذلك ••

انى أفهم الآن موقف آدم عقب اخراجه من جنة السماء •• انى أتخيله قد لبث ــ بغير حراك ــ فى الموضع الذى هبط فيه ، ومرت ليال وأيام وهو ينظر الى السماء ، يرقب كل حركة فيها • اذا رعدت ، فهو صوت أبوابها ، تفتح لتناديه من جديد ، واذا لمع البرق ، فهى ابتسامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة واذا تساقط الشهب فهى همسات غضب مازال قائما ، واذا استدار اليه ، فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم •• وكر الزمن ، وآدام يتمرغ فى مكانه بين الياس والرجاء عند ذلك المهبط من الأرض ، يمسح وجهه باعتاب النعيم ، الى ان انتزعته غريزة « الحياة » من هذا القنوط الطويل . وأرغمته على النهوض فقام يدب فى الأرض ، ويعيش كما تعيش الأحياء من المخلوقات(٣) •

---

(٣) المصدر السابق ، الفصل السادس ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ •

واذا كانت هذه التهويمات وغيرها بمثابة جسر بين حالة وحالة ، بين ما صار اليه من ضعف المحب المهان الذليل ، الذى ألفى به من فوق عرش الحب ، وبعد أن كان ملكا ·· اذا به عبدا مهيضا ، وبين ما يتحسسه هنا وهناك داخل وخارج الذات بحثا عن القوة المعوضة ··

فهل أجداه البحث عنها ؟ ··

انه يدخل فى حوار عميق مع النفس والعقل والقلب ·
حتى يدرك شاطىء النجاة ·· متوسلا بالخيال تارة والفكر الواقعى تارة أخرى وبنوازع الايمان أيضا ·

·· وكان أحيانا يلمح فوق غلاف بعض الكتب فقرة أو عبارة أو بيتا من الشعر ، وضع على سبيل الاستشهاد فيجعل منه (نغمة) ، يظل فكره يرتب عليها تقاسيم طول النهار ، وكان يجد فى هذا شيئا من السلوى غير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب جعل فى رأسه هذا القول لشاعر يابانى :

انما يبنى الشاعر سعادته على الرمال

ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول الجارى ···

نعم ·· هنا كل البلاء الآدمى ·· ألا يمكن للنفس الشــــاعرة أن تقيم هناءاها على دعائم أثبت قليلاً من هذه الرمال التى تغــــرق فيها الأبل ·· وتكتب أغانيها على صفحات أبقى من صفحات هذا الماء ، التى تطويها فى شبه طرفه العين أنامل الهواء ؟ ··

نعم هنالك سبيل واحد لا ينبغى أن نبنى شيئا جميلا فوق الأرض .. هذه الارض المتغيرة المتحـــركة برمالها ومائها وأهوائها ..

وفطن الفتى الى أن هناك حقا نوعا من الهناء ، قد عرفه يوما ، هو هناء الصفاء .. هذا الصفاء الذى لايوجد الا فى الارتفاع ..

ولنتأمل معا الفقرة التالية ، أنها فى رأيى الذروة فى توصل الحكيم الى القوة المعوضـــة ، من خـلال تأثيرها النفسي العميق .. وان كان سيعقبها ايضا التوسل بقوى معوضة أخرى ؟

« وأحس الفتى فعلا كأنه قد خف وزنا ، وكأنه يرتفع وكأنه يبتعد عن هذه الأرض ، ليعود الى السماء ، الى سمائه التى كان قد هبط منها ..

وجعل محسن طول يومه هذا ـ يقلب مثل هذه الأفكار، وعاوده شوق وحنين الى المسجد ، أو الى بيت من بيوت الله (٤) .

واذا كان المحب ، حاول أن يغرق نفســـه فى عالم الموسيقى لتغسل صدره ويطهر روحه ..

الا أنه قد استغرقته حقيقة الصداقة مع « ايفانوفيتش » ذلك الروسي . وهو استغراق له دلالته سواء على المستوى العام للرواية ، أو على المستوى الخاص للفكرة ، التى

---

(٤) المصـــدر السابق ، الفصـــل الثامن عشر ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

سعى اليها الحكيم ، أو الى ما نحاوله مجتهدين أن نجد فيه تواصل خطاه بحثا عن القوى المعوضة ..

فاذا كانت « سوزى » التى أحبها وعشقها ، هى رمز الغرب بكل ثقافته وأفكاره وانطلاقاته ، الى حد البوهيمية أحيانا .. ثم ناله منه ما ناله ..

فقد وجد فى صداقة ايفانوفيتش البديل للحب المهزوم . الحب الذى لا يهضمه شرقى ايضا مثل الحكيم واذا كان ايفانوفيتش من بلاد الشرق ومن الروسيا الكافرة ، الا انه كما صور لنا روسى شرقى كافر بالماركسية بل تعمقت تلك الصداقة المعوضة له ، على أساس ما يحمله ايفانوفيتش من حب أصيل للشرق الاسلامي ولنتابع الحوار بينهما :

ــ كيف حالك اليوم يامسيو « ايفانوفيتش » ؟ ..

ــ بخـــــير ..

قالها الرجل على نحو غريب ، عجب الفتى وهو ينظر بطرف عينيه الى الكتب ، وقرأ فى دهشة :

ــ « التوراه » ، « الانجيل » ، « القرآن » ..

ثم التفت الى « ايفان » وقال :

ــ عجبا .. انك فيما أعلم لا تؤمن بشىء ..

فقال الروسى ، كالمخاطب نفسه :

ــ أريد أن أعرف : كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة

أن تعطى البشـــرية راحة النفس ، وأن تغمرها فى ذاك الاطمئنان »(٥) .

بل ان هذا الروسى الكافر بالماركسية والشيوعية وكل شعاراتها من طليعية ويسار الى آخر الأكاذيب والمؤامرات .. لا يرى لنفسه مخرجا الا فى أرض الأنبياء ..

لذلك فهو قد أمسك بيد محســـن بين يديه ونظر اليه طويلا وقال :

ـ أتعاهدنى ؟ ..

ـ على ماذا ؟ ..

ـ أن نذهب معا الى الشرق ..(٦) .

وهكذا استطاع محسن أو الحكيم ان يفلت من ابتلاعية سوزى أو الغرب ، عندما لجأ الى موروثاته الروحيـــة والنفسية والفكرية بل عندما التصق بـ « ايفانوفيتش » ـ كقوى معوضة ليتحقق له المقابل ـ الموازن النفسى أو المعادل .. أى التعادلية ..

لكن هل كانت هذه هى الابتـــلاعية الوحيدة ، التى تعرض لها توفيق الحكيم فى عالم الحب والعاطفة ؟؟

يبدو أنه قد عانى فى صباه وفتوته أشد المعاناة ، وليس ببعيد عن الذهن ما ضمنه روايته « عودة الروح » ، وأيضا

---

(٥) المصدر السابق ، الفصل التاسع عشر ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٦) المصدر السابق ، الفصل العشرون ، ص ١٩٧

كان بطلها « محسن » أى لسان حال الحكيم و « سنية » النموذج الشرقى للمحبوبة التى كانت حديث العائلة أو الشعب كما كان المؤلف يطلق عليهم ·· ومنذ بداية القصة تسيطر علينا « سنية » الغائبة الحاضرة من خلال منديلها الذى اختلس منها ·· وكل يمنى نفسه به ، وكل يعتقد فى غيره أنه الفائز به وفى خضم هؤلاء الكبار ·· كان الأمر بالنسبة لـ « « محسن » أبعد من كل ادعاء » ، بل يصبح الوحيد الذى يدخل بيت سنية وأذن سنية مغنيا لها مطربا وهى تلعب البيانو له « وكانت سنية تصغى أيضا الى محسن بسرور ولذة وتنظر الى سقف الحجرة مبتسمة طروبا ، وتردد بعض النغم فى نفسها معه ، ولكنها ما فطنت قط الى أن المغنى انما يقصدها هى ، ويفكر فيها هى ، وهو يغنى أغنية عبده (أى عبده الحامولى) :

قدك أمير الأغصان   من غير مكابر
وورد خدك سلطان   على الأزاهر
الحب كله أشجان   ياقلب حاذر
الصد ويا الهجران   جزا المخاطر (٧)

لقد عاش محسن أو الحكيم تجربة الحب الأول بكل شفافيتها وعذريتها ، وينسج الخيالات وعندما يتصور الجميع ان لعبتهم « سنية » اذا بـ « سنية » تلعب بالجميع ·· واذا بـ « مصطفى » الوحيد فى العين والقلب ·

وينقلب حال « محسن » الذى يعتقد وهو الذى ظفر

---

(٧) عودة الروح ، الجزء الأول ، ص ٩٩ ·

بمنديل « سنية » ورضاها بل قبلة فى يوم ما وســـاعات الطرب والبيانو ـ أنه لديها الحبيب ولا أحد غيره ..

ولكن الحقيقة كالرياح التى لا يشتهيها الســـفن .. وكانت اللطمة والطعنة والعذاب ..

وهكذا بدأ رحلة معاناة الضعف فى مثل هذه الحالة التعسة ، ولعل توجهه التالى يكشف لنا طبيعة شخصية الحكيم ، الذى لم يكن يروى غير مأساة حبه الأول فى تلك المرحلة المبكرة من عمره ..

وعندما رأى فى الطريق « مصطفى » الذى تعلقت به سنية من دونه ، ألم به عناء شديد وأسود الميدان فى نظر محسن فلم يشعر الا أنه يتجه الى المسجد ، وفى قلبه شبه هلع أن يكون هذا الرجل قد رآه ، وخلع نعليه بســـرعة وارتجاف وسار على بساط الجامع حتى بلغ المقام ، فانزوى فى ركن من أركان الضريح المظلمة التى لا ياتيها النور الا من « نجف » كبير يتدلى من أعلى تلك القبـــة الفخمـــة الشاهقة ..

وتناول محسن بيده قضبان الحواجز النحاسية ، وجعل يهمس ملهوفا من صميم قلبه ، بصوت عصبى متقطع :

ـ ياسيدة زينب .. ياسيدة زينب .. ياسيدة زينب . ..ياسيدة زينب ..

وانفجر باكيا ، وتساقطت دموعه على بساط المقام وهو يكتم شهقاته فى صدره ، حتى لا يسمعها الزوار حوله .

ويتضح لنا عمق مأساته العاطفية فى تلك السن وان اقترب لحد كبير مما عاناه كبيرا من « سوزى » فى مرحلة

تالية فكما ظل يتذلل اليها « محسن » فى رسائله لعلها تشفق على حبه ، ولعلها تبقيه فى الجنة كذلك نجد « محسن » « سنية » وقد « اشتد حاله » سواء ، وأجمعت أساتذته بعد عجب طويل على ضـــياعه المحقق هذا العام أن لم تنقذه أعجوبة ، وشحب لونه وقل كلامه ، فأشفق عليه أعمامه ، وصاروا يخرجون الى النزهة ارغاما ليروحوا عنه(٨) .

فكيف والأمر كذلك ، أن تتكشف القوى المعوضة ، ولأنه فى مرحلة سنية غيره مع «سوزى» فيما بعد بسنوات كثيرة ـ اذ كيف تواتيه القوى المعوضة ‥ لقد تحققت فجأة عندما عاش الجميع من حوله فى مأســـاته ، وعرفوا بأمر حبه والمنديل ‥ الخ ‥

وهنا التفوا من حوله يؤازرونه ‥ بل أصبح محسن « مرتاحا الى أن ما قاله خاصة أصبح ملكا للجميع ، والى أنه بات يدخل عليهم الرجاء والاغتباط أجمعين ‥ وأحس منذ تلك اللحظة أنه مسئول عن هناء هذا الشعب وانه يجرؤ الآن على فعل كل شىء من أجلهم ، وأنه لن يحرمهم بعد الآن أى شىء مما يخص به نفسه ورضى أن يذهب لمقابلة « سنية » عله أن يأتى بنتيجة يفرح بها الشعب»(٩) ‥

هكذا تتبلور القوى المعوضة فى قدرته على الانفتاح عاطفيا على من حوله ، تحقيقا للتعايش والتعاطف ، الذى يذيب مأساته فى الآخرين ، فيكتسب موقفا عاما يستثير لديه القوى النفسية المعوضـــة التى تعينه على تحاوز موقف عصيب انتقالا الى موقف المواجهة مع سنية ‥

---

(٨) المصدر السابق ، الجزء الثانى ، ص ١٠٥ .

(٩) المصدر السابق ـ، الجرء الثانى ، ص ١٨٩ .

وبغض النظر عن نتيجة توجهه للقاء سنية وان ينال صفعة لتمكن حبها منه ، وأى سلبية منه تتجسم وتتضاعف لتصبح كالجبال عبئا وثقلا من ذلك اللقاء ٠٠

ولكن تتفجر في نفسه القوى المعوضة مرة أخرى ، وذلك عندما يتجه الى التعايش مع المجتمع الكبير ٠ الشعب كله ، وذلك من خلال هدف أسمى « ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار ، واذا اربعة عشر مليونا من الأنفس لا تفكر الا في شيء واحد : الرجل الذي يعبر عن احساسها ٠٠ والذي نهض يطالب بحقها في الحرية والحياة ، قد أخذ وسجن ، ونفى في جزيرة وسط البحار ٠٠ »(١٠) ٠٠

لقد اكتشف في نفسه قوى وطنية وثورية ٠٠ بل نجد محسن ، الذى كان يجتهد ليثبت لسنية مشاعره وهو يردد :

قدك أمير الأغصان   من غير مكابر

يحمل المنشورات التى تشحذ الهمم ، وتغذى شرر الثورة من أجل الزعيم الذى نفى من البلاد ، بل ونجد أفراد عائلته ٠٠ أو « الشعب » قد شاركوه مصيره ، بل لم يعد يعرف أيا منهم قد سبق للمشاركة ٠٠ لكن ما قد وضح وتأكد ٠٠ هو أنه قد أصبح الكل فى واحد ٠٠ كقوة معوضة ٠٠ ويصبح هذا الواحد عضوا متضامنا فى جماعة ٠٠ أى يتوحد معها اجتماعيا وسياسيا وانسانيا ٠٠

وهذه عاشها « محسن » ورصدها الحكيم ، ومن ثم نتعرف الكثير عن تلك الشخصية من خلال هذا المفهوم ٠

---

(١٠) المصدر السابق ، الجزء الثانى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ٠

أسطورة عــدو المرأة ..

وفيما نعتقد أن لهاتين التجربتين العاطفيتين البائستين في حيــاة الحكيم أثرهما على شــخصيته تأثيرا عميقا .. انعكس بالتالى على موضوعات ابداعه ومواقفه الفكرية فيها ..

فتوفيق الحكيم أحب المرأة مرتين وفى كل مرة انتهى بالتجربة الى ما يشبه الصفعة ..

وان التجربة قد تنازعته بوجهين : الأول ايجابى وهو عطاء الحب بكل ما فيه من عذوبة ..

والثاني ســلبى ويتمثل فى النهاية المأســاوية التى عاشها ..

وهو فى كلا الموقفــين تتنازعه قوتان ، حب المرأة ، والعزوف عنها .. أو التصدى لها بمالا تحب .. وهو فى كلا الموقفين يبدو للمتأمل عدوا للمرأة .

وبالطبع كما أنه لا يمكن لنا أن نتجاهل رده فعل هذا الموقف الفكرى من المرأة والبارز فى قصصه كذلك جدير

بنا الا نغفل تأثيره على شخصيته • وهذا ما يدفعنا الى محاولة التعرف على موقفه العاطفى من منطلق مكونات شخصيته وتأثراتها خصوصا على مستواه الشخصى جدا •• أو العائلى • ترى ماذا كانت سلوكيات توفيق الحكيم العاطفية داخل بيئته ؟ •• أو بالأدق مع زوجته ؟ •• هل كان ذلك المحب الضعيف جدا ـ كما كان فى صغره مع سنية فى عودة الروح ؟ ••

ام كان الحكيم هو ذلك المحب المهزوم فى معركته مع سوزى فى عصفور من الشرق •• ؟

لقد اختصر الحكيم علينا المسافات فى هذا المضمار ، عندما ذكر فى « الاعترافات هذه العبارة •• وفقدت زوجه لم تسمع منى فى حياتها لفظة حب واحدة •• »

ولانه يعرى دخيلته •• فهو أيضـــا قد تخير المنطقة الوسطى بين الافصاح وعدم الافصاح عن الحب أو عكسه

واذا كان توفيق الحكيم فى اعترافاته قد أشـــار الى سبب وصفه بعدو المرأة ،وان ذلك يرجع الى « امرأة أخرى مشهورة هى « هدى شعراوى » بسبب مهاجمتى لاسلوبها فى تشكيل عقلية المرأة المصرية وخاصة البنات بان حذرت الجميع من الاستمرار فى حياة الجوارى وخدمة الرجال والأزواج فى البيت لانهن مســــــــاويات للرجـــــل فى كل شىء • واشتكى لى بعض الأزواج من البنات والزوجات طراز هدى شعراوى ، وفهمهن لرقى المرأة على انه استعلاء على الرجل وعدم العمل والخدمة فى البيت •• فكتبت فى ذلك كثيرا ونصحت الزوجة الحديثة بان تعرف على الأقل

أن تهيىء الطعام لزوجها ٠٠ وان أسهل صنف يمكن أن تطبخه له هو صينية البطاطس في الفرن ونشـــرت مجلة مشهورة حديثا لي وقتذاك بعنوان مثير وهو : لا توجد زوجة صالحة في مصر ولم تكن النتيجة فقط الصاق صفة عدو المرأة بي الى هدى شعراوى وزميلاتها ومن سيدات مصر وتلميذاتها من الشباب ولكن امتد الغضب الى القصر الملكى نفسه ، وظنت الملكة » نازلى » فيما أعرف أن المرأة غير الصالحة فى مصر شملها هي أيضا ، فطلبت من على ماهر باشا وأظنه كان رئيسا للديوان الملكى العمل على رفتى من وظيفتى ، لولا أن وقف بجانبى رجال الأزهر الذين رأوا فى نقدى لهذه المرأة الحديثة بهذا المسلك ما لا يصح فى نظر الدين ٠٠ ولكن بقى دائما لاصقا بى وصف « عدو المرأة » ، ونسيت الأســـباب التى كانت الأصل ولا أريد هنا أيضا التبرير أو الدفاع عن نفسى ، فربما كنت أكره المرأة فعلا لكثرة ما كانت هى السبب فى العديد من مشاكلى ، ولكنى مع ذلك أحبها كأنثى خلقها الله لنا « مودة ورحمة ٠٠ »(١) ٠

ولذلك فقد انعكست هذه الازدواجية من المرأة على العديد من كتابات الحكيم ، فاذا كان فى اعترافاته ذكر المقال سبب العداء ، والذى فيه ذكر صـــينية البطاطس ، فنجده فى مجموعته القصصية « أرنى الله » يكتب قصـــة بعنوان «أسعد زوجين» فالزوج سعيد بزوجته التى تذيع من الراديو برنامج عن طبق اليوم وطبعا برام اللحم بالبطاطس

---

(١) اعترافات توفيق الحكيم ، مجلة أكتوبر .

•• ويسيل لعابه ، وعندما تأتى الى البيت تقدم له طبق البيض المعتاد فهو كل ما تجيد فى فن الطهى ••

بل لقد تعددت القصص فى ادب الحكيم التى تجعل المرأة فى موقع ادانة منذ بدء الخليقة ومن ذلك قصة : « ابليس والحية » و « ضلع آدم » كما نرى الحكيم يحاول أنصافها فى قصص أخرى مثل : « امرأة غلبت الشيطان » و « الرباط المقدس » و « راهب بين نساء » •

ولعله بتمجيده لشخصيات تاريخية تراثية مثل «ايزيس» « وشهرزاد » يحاول انصافها اكثر ••

لكنه أيضا يتراوح فى الانصاف والادانة ، وذلك مما نلمسه فى بعض كلماته المأثورة(٢) :

● المرأة لا تبصر فى المرآة وجهها الحقيقى ، بل الوجه الذى تريده هى لنفسها •

● آه للمرأة اذا ابتليت بالجهل فهى مخلوق تافه ، واذا منحت الذكاء فهى مخلوق خطر •

● الخداع هو الأوكسجين فى هواء كل امرأة فان لم تجد من تخدعه خدعت نفسها •

● المرأة فاكهة شهية ينخر فيها الدود •

والعبارة السابقة تذكرنا بما أورده فى عصفور من الشرق ، وهو يشكو مأساة حبه مع سوزى ويذكر التفاحة التى بداخلها الدود •• !

---

(٢) توفيق الحكيم المفكر ، ص ٣٠٩ ، الناشر مطابع الأهرام التجارية .

ثم يورد من كلماته مايمكن أن يكون انصافا للمرأة :

- الجنة لا تسمى جنة اذا لم تكن فيها حواء .
- المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهـــرة المجتمع وروحه ، وما البيت او المجتمع بدونها غير آنية بلا زهر وقارورة بلا عطر .

فهذا وذاك يبرزان الموقف المتراوح للحكيم من المرأة .. وانه بقدر ما يرى فيها من قوى سلبية ، فأيضا يرصد لديها ما يراه من قوى ايجابية .. وهذا يمثل اتزان رؤيته لها او تعادلية الرؤية للمرأة وقد قرر فى التعادلية : كثيرا ما يخلط الناس امر نظرتى وعلاقتى بالمرأة وأنهم يتهموننى أحيانا بالتناقض أو يرون اننى أحمل عليها وأشيد بذكرها مرة أخرى ، والحقيقة بأننى فى كلا الحالتين اعتقد ما أقول .. » ..

ليس بخيلا .. ولكن ..

اذا كانت هذه بعض السمات التى أمكن رصدها فى الشخصية التعادلية للحكيم من الداخل ، وهى فى المرتبة الأهم الا أن صفة أخرى قد أشيعت عن الرجل ، وظلت تلازمه وهى صفة البخل ..

● فهل كان الحكيم بخيلا حقا ، حتى صار ذلك الأمر مثارا للتندر ويتداول بين جيل الرواد فى الفكر والفن وأن هذا الأمر قد دفع البعض الى الحديث وكتابة الكثير حول بخل الحكيم ، بل صار من الطريف أن للبعض كتبا تتعرض لذلك حتى أن كمال الملاخ أفرد كتابا بعنوان « الحكيم بخيلا » ..

ولكن لا تستغرقنا مئات النوادر من الحكيم بخيلا ، وغالبيتها دون شك قد صنعتها الظروف وليست طبيعة الرجل ، خاصة وقد تناول بنفسه أمر علاقته بالمال وهو على فراش مرض الوفاة وليسمح لى القارىء أن أقدم هذا الجانب بشىء من التفصيل ، خاصة أنه قد جاء فى

« الاعترافات » : « وهل للمال ودفع المال أهمية كبرى عندى ؟ سؤال مهم . الجواب : ليس المهم حب المال ولكن المهم العمل على اكتسابه والسير فى الطريق المؤدى اليه ، وطريق المال يختلف عن طريق الفكر .. وأعمالى الأدبية كلها لم تكن من النوع الذى يأتى بالمال . واذا حدث أن نجح وراج كتاب أدبى أو فكرى ، وجاء بمال كثير فان صاحبه الأديب المفكر يفاجأ بذلك . كمن يتزوج مدرسة حساب تلبس نظارة طبية فى مدرسة بنات ابتدائية .. فيفاجأ بانتخابها ملكة جمال . طبعا يسره ذلك ، ولكنه يدهش له لأنه لم يكن فى حسبانه ذلك النجاح ، كما قد يدهش من يتصور أن مسرحياتى التى قاربت على المئة لم ينجح واحدة عنها النجاح الذى يدر ربحا يذكر ، أو ينجح جماهيريا النجاح الذى يذكره جمهور المسرح .. وعندما شاع عنى انى أجيد الحوار طلب أهل السينما ان أكتب حوارا لسيناريو العديد من الأفلام ، التى تظهر وقدروا الربح السنوى الذى يدخل لى من ذلك فرفضت ولرفضى المستمر لكتابة الروايات العاطفية المربحة والمقالات الصحفية المثيرة كنت أطالب الأجر المرتفع جدا الذى يفزع من يطلب ذلك منى ، وبذلك شاع عنى حب المال . ولم يعرفوا أن قصدى الحقيقى هو ابعاد وتطفيش من يطلب منى هذه الكتابات . واذكر أن المرحوم « التابعى » أراد منى مقالا .. فبدأ واغرانى بقوله :

ان أكبر أجر للمقالة يعطيه لطه حسين فى ذلك العهد هو مبلغ ثلاثة جنيهات ونصف جنيه · كان ذلك منذ نحو نصف قرن فكتبت له مقالا أغضب رئيس الحكومة وقتذاك محمد محمود باشا ، فقرر طردى من وظيفتى وكنت مديرا بتحقيقات وزارة المعارف ، ولكن صديقى الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان وزيرا فى وزارته استطاع أن يقنعه بالاكتفاء بخصم نصف شهر من مرتبى ·· وانتشرت الاشاعة باننى أحب المال ، وتركتها تنتشر ·· الى حد أن العقاد صدق ذلك ، كما صدقه طه حسين . فكان كل منهما يشترط أن يكون اجره فى كتاب أو مقال مساويا لأجرى وكنت أوكد لهما أنه مقلب لهما لأنى فى الحقيقة أقبل الآجر الأقل للأعمال الفكرية المحدودة التوزيع وليتنى كنت فى الحقيقة أعمل من أجل المال لكنت اليوم ثريا ولكنى أعيش بالستر فقط وبما يكفى لمعيشتى العادية جدا ·· وهذا واضح ··

والبخل ·· البخل ايضا اشاعة كان من أهم المروجين لها « أم كلثوم » · اجتمعنا فى وليمة ، فسألت المدعوين : هل سبق أن حضرتم وليمة على مائدة توفيق الحكيم ؟ ·· فأجابوا كلهم بالنفى · وان ليس لى مائدة ثم تقابلنا بعد ذلك فى وليمة كان فيها العقاد والمازنى ، فطلبت من كل منهما التبرع لنقابة الموسيقيين ، التى كانت فى وقتها رئيستها وجاء دورى فأخرجت لها محفظتى ففتحتها

فوجدتها خالية · فقال لها المازنى ابحثى فى علبة نظارته ، لأن المازنى كان يعلم ذلك ففتحت علبة النظــارة الطبية فوجدت ورقة مالية بخمســة جنيهات فأخذت النقود ثم اعادت الى علبة النظارة وهى تقول بما اشتهر عنها من النكات : أنت حاطط الفلوس فى عينك ·

وهكذا شاع عنى حب النقود والبخل · ولا أريد الآن أن أدافع عن نفسى ·· فأنا هنا فى مجال الاعتراف ولامحل للانكار والتبرير ·· وقد تكون الاشاعة صحيحة ·· فليكن ·· فحياتى كلها لا أحبها ولا تستحق عندى الدفاع عنها ··

واذا كانت الجملة الأخيرة تحمل الاستكاف ، كما بدأت بـ « قد » السابقة للمضارعة ·· فتعنى الظنية أو الشك ومعنى هذا انه قد بلغ حالة الضيق النفسى وضاق صدره وأراد بعد درء ودفاع أن يمضى الأمر على عواهنه حتى لو كان هناك اصرار على أنه بخيل ·· فليكن ما يكون ·· بعد أن سرد الحقيقة فليقبل بها من يشاء ·· وليرفضها من يشاء ··

ولكن النظرة العلمية تقتضيا أيضا أن نسترسل بحثا عن موقف توفيق الحكيم المفكر من البخل ·

ومادمنا بصدد التعادلية فى شخصية توفيق الحكيم ·· فجدير بنا أن نبحث عن ضالتنا فى تعادليته ، وهذا هو ما

سنقع عليه فى كتابه « الاسلام والتعادلية » فاذا كان البخل نقيض الاسراف وبالمعنى التعادلى ان الاسراف فى جانب يقابله البخل فى الجانب الآخر . فان الاعتدال « يكون نقطة التوازن بينهما ..

ومن ثم فان توفيق الحكيم يقول : « والعدل والاعتدال والتعادل وضد هذه العناصر الطغيان والظلم والاسـراف وقد ذكرت فى القرآن كلمة « الاسراف كثيرا ، والأمر دائما بالقول « لا تسـرفوا » لأن الاسـراف اخـلال بنظام الكون .. »(1) .

ويسـتوقفنى ما كتبه « رأفت الخياط » تحت عنوان « عبقرية الشـخصية عند توفيق الحكيم عندما استوقفته شائعة البخل فناقشـها قائلا : « انتابتنى الحيرة عند الاقتراب من أحد المداخل (يقصد تعدد عوالم الحكيم المفكر الفنان) لأطـرق بابا أدلف منه الى أحد هذه العوالم ، ليستوقفنى خاطر غريب ارتبط بأسلوب حياة توفيق الحكيم الذى لم يتوقف منذ زمن بعيد ، وهو السير على الأقدام من بيته الى مكتبه ..

وتتصارع فى الذهن عشرات من الاستفسارات والشروح مجتنبة مزالق التلكؤ عند سخافة حكاية البخل عند توفيق

---

(1) الاسلام والتعادلية ص ١٨٢

الحكيم ليبرز معنى أقوى وأهم بكثير لعله هو الزهد فى الترف ، لعلها متعة المشاركة الفعلية لسواد الناس الذين لا يملكون سـيارات خاصـة · لعله الاحسـاس الدفين بالتواضع الجم والتسـامى وبغض التعالى ، والنظر الى المارة من النافذة الضـيقة لسـيارة زجاج نوافذها من « الفيميه » ·

أسمعه يقول فى حديثه مع نفسه « ١٩٨٣ » ينبغى أن يؤمن الناس بأن مامن أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذى لا يشترى بمال ولا جاه ·· نعم · ان من ملك قلبا حارا ولسانا حرا ، ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع لهو وحده الذى يستطيع أن يغير العالم ·· »(٢) ··

ومما سبق نستشف المعنى الايجابى الذى يفسر شائعة البخل المدعى من البعض عند الحكيم وهو بالنسبة للحكيم لا يفسره الا عدم الاسراف · وهذا هو الأقرب الى منطق الحكيم ، وشخصيته التى تسعى الى تحقيق التوازن بين ما هو فى موقع الاحتيـاج الحقيقى للحـاجة ، بمعنـاها الاقتصادى العلمى الدقيق ، وما زاد على احتياجه لتلك الحاجة التى تشبع رغبته ··

---

(٢) عبقرية شخصية توفيق الحكيم ، رأفت الخياط ، جريدة الجمهورية ـ ٢٩ يوليو ١٩٨٧ م ·

ثالوث توفيــق الحكيم

ولا نكاد نبلغ غاية البحث والتنقيب عن التعادلية فى شـــخصية الحكيم ، حتى يظل أمامنا ما قد أصبح مثارا للانتباه ، وصار ظاهرة تتعلق بالشكل دون المضمون ·· وان أصبحت ذات علاقة دالة · وأقصد بذلك العصـــا والحمار والبيريه ·· فهذا الثالوث ارتبط بالحكيم ارتباط تلازم ·· حتى كاد يصبح فى مكانه الصفة اللاصقة بالشىء ·· أو الشىء وماهيته ·· وقد شاع ارتباط الصفة اللاصقة أو الماهية بأعلام فى تاريخنا العربى مثل « ذات النطاقين »، وفى التراث الاغريقى : هيلانة ذات العنق الجميل ··

ولذلك فعلى مدى خمسين عاما ، استمر التلازم بين هذا الأديب المفكر وذلك الثالوث ·· فتردد دائما : حمار الحكيم ، عصا الحكيم · واذا تحرك هنا أو هناك فدائما يعتلى رأسه العملاق بيريه الحكيم ··

وجدير بالذكر انه قد أصدر مجموعة مقالات فى عام ١٩٣٨ بعنوان « حمارى قال لى » · ثم أقام حوارا مع الحمار فى كتابه « حمار الحكيم » وذلك فى سنة ١٩٤٠ ،

وبعد ذلك بخمســـــة وثلاثين عاما اصـــــدر مســرحيته « الحمير » ··

وعلاقة الحكيم بحماره أوالحمير ، ليســـت من باب التزيد أو المنظرة ـ اذا صح استخدام الكلمة الأخيرة ـ ولكنها فى الأصل ·· كما يوضح الحكيم فى اعترافاته :
« كل هذه الوسائل التى اعتبرت دعايات من ابتكارى ، كانت لها ظروفها الحقيقية فى الواقع ، ولم يكن لى يد فيها أو التفكير فى استخدامها الا بعد أن شاعت ، فاستمر فيها ولا أحـــاول تكذيبها ، لأنى أعتقد أن التكذيب يثبت ولا ينفى ··»(١) .

ولعلى اضيف عندما أذهب الى أن الحكيم حين وظف حماره ، ليعلن من خلاله آراءه المناهضة للاحتلال وللأنظمة الفاسدة ، هو من باب التوظيف الذكى الذى يؤكد الحيطة لدى الكاتب المفكر ··ولنتأمل هذه العبارة من مقاله فى أخبار اليوم فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٦ على لسان حماره « نحن معشر الحمير لم نقبل أن نوقع بامضائنا على أن توضع القيود فى أرجلنا واللجم فى أفواهنا » ··

ونفس الأمر بالنسبة لعصا ·· عصا الحكيم ·· فتلك العصا التى لم تفارقه حتى الممات ·· لها عنده فى النفس اشياء وأشياء ·· حتى لقد عبر عن ذلك بانه يجد بينه وبينها نوعا من الوفاء ··

---

(١) الـ « اعترافات ... » .

واذا كانت العصا اشتهرت فى تاريخ الانبياء والرسل ، هذه عصاى اتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » ، « وألقى موسى عصاه فاذا بها حية تسعى تلقف ما يأفكون » ..

فان عصا الحكيم تحولت من مجرد عصا للتوكؤ الى توظيف فكرى فى كتاباته .. انها تستخدم فى الموقع الذى ينبغى أن تكون محل الشـــــدة . ومن ثم فقد طلع علينا توفيق الحكيم بكتابه « عصا الحكيم » الذى تضمن مقالاته الحوارية فى سنة ١٩٥٤ .

ثم جمعها معا تحت عنوان واحد فى كتابه « حمارى وعصاى والآخرون » .. وهكذا نجد أن الحكيم قد استطاع أن يكون بحق كما كتب « لمعى المطيعى » « صانع الاقنعة » .. ويفسر ذلك قائلا :

« ولقد خدعنا الحكيم واجاد الخداع ، واوهم الدنيا كلها أنه لا شأن له بالسياسة .. كانت له كتابات سياسية مباشرة ، ولكنه أوهم الناس جميعا أنه فى حاله « يكتب للمسرح .. ومن خلال أعماله الأخرى كتب فى السياسة ، وفى المذاهب ، وفى المواقف الاجتماعية أكثر مما كتبه غيره من كتاب السياسة المباشرين .. » .

وهو فى ذلك كما اسلفنا ، ذلك الفنان « الحويط » الذى قرر أن يوجه ويتحدى المستعمر والفساد ، دون ان يكون موضع تنكيل .. ولعل ذلك بعض مردود خبرته الاولى ، وموقعه كرجل قانون ، ونائب ومحقق .. خاصة وقد منعت الرقابة عرض أولى مسرحياته الوطنية « الضيف الثقيل » .. أى المحتل للبلاد ..

* * *

ـ الباب الرابع

التعادلية والأدب

- في الأدب العربي
- في الآداب الأخرى

التعادليــة والأدب

● ·· لعلى قد بلغت الغاية والقصد من دراســة للتعادلية فى أدب توفيق الحكيم ، عبر رحلة الفكر والابداع خلال عطائه الثر ··

واذا كنا فى مدخل الى التعادلية ·· قد ألممنا بالمنطلقات الرئيسية للتعادلية ، وموقعها بين ماهو فكر وماهو فلسفة، بل طرحنا العديد من التســاؤلات ، فجاءت بمثابة المحاور الجوهرية لهذه الدراســة ثم مضينا فى رحلة البحث عن المعالم الفكرية للتعادلية ، خصوصا ارهاصاتها فى ابداع الحكيم ، مما يعتبر الملامح الأولية لها · وكيف أخذت تنمو وتتطور بل استوقفنا كذلك التعادلية من خلال قضية أزلية يمكن أن تفسر لنا تاريخ الانسانية ·· من منطلقها العظيم ألا وهى حرية الانسان ، وكيف اتسمت لها التعادلية فكرا ·· كما وجدنا ما يواكبها فى ابداع الحكيم · ثم بلوغا الى أبدية الخير والشر الى الرؤية اليوتوبياوية فى رأى الحكيم وكيف يمكن فى خضم ما نطرحه مناقشة قضــية الجبر والاختيار فتبرز لنا قضية هامة فى منظور التعادلية

الا وهى ارادة الانسان ·· الى ان رصدنا بالبحث والتحليل المعالم البعيدة ، التى تشكل ارادة الانسان ودور العقل او الفكر فى ذلك ، ومفهوم الالتزام فى مفهوم التعادلية ·

وكان من المنطقى ان تفرز المقدمات النتائج التى توصلت اليها الدراسة فى هذا المضمار من سمات مميزة للشخصية التعادلية التى توفرت لها الحرية والارادة ··

كما رصدنا المبادىء الخمسة التى تمثل الخطوط العامة للشخصية التعادلية ، لنغوص فى أعماق هذه الشخصية بحثا فى الفكر والشعور ·· الروح والجسد ·· ومدى مصداقية هذه المفاهيم تطبيقا على عالم الحكيم الابداعى ··

ثم وقفة باحثة للابتلاعية ، وسبل مقاومتها ·· سواء فى اطار الفكر التعادلى او من المنظور الأدبى ، الذى يعنى بتصوير ردود فعل الخلل ·· اذا وقع فى اطار الحياة ، فيفسر لنا تناقضات السلوك الانسانى ، الذى يؤصل فى داخله عوامل الابتلاع والمواجهة ··

لكن الحكيم يأبى أن يتركنا دون أن نحاول استشفاف ·· ــ على ضوء تعادليته ــ السبل نحو الشخصية التعادلية ·· أو تعادلية الشخصية ، ودور الحوار بين « الأنا » و « الهو » ودور الذاتية والموضوعية فى تحقيق ذلك الهدف ·

وقد ارتأينا أن نتساءل عن نصيب التعادلية فى أدب الحكيم ، وهذا مما استوجب التمحيص والبحث والدراسة ·· بل اجتهدنا لنتلمس سمات وابعاد الشخصية التعادلية فى مختلف ابداعه ·

واذا كنا بداية ونحن نتلمس السمات والابعاد المميزة للشخصية التعادلية ، قد وقفنا ازاء الأسس التى تؤطرها ·· فقد ذهبنا الى أقصى مايمكن لنا من تصور فى محاولة تطبيق هذه السمات على شخصية صاحب التعادلية ولأن الحكيم قد أثار الزوابع والأعاصير فى مواقفه الفكرية من الدين من خـــلال حواراته الأربع ، فكان من المنطقى أن نخوض فى اسلاميات الحكيم وتدينه فى اطار التعادلية ، وفى هذا وذاك وظفنا المنظور التعادلى فى الكشـــف والتفسير ، لعالم الحكيم الايمانى · وقد عرضنا ايضـــا للرد والمناقشة والحوار العميق مع كل من الدكتور زكى نجيب محمود ، والدكتور عاطف العراقى ، والدكتور لويس عوض · كما ناقشنا آراء كل من الدكتور رمسيس عوض ، وأحمد محمد عطية فيما عرضنا له فى فكر الحكيم ومسرحه مما أثرى الرؤية الفكرية الشاملة للحكيم فى اطار التعادلية ومما أغرى أيضا على الاســـترسال فى مباحث التعادلية اعتمادا على ما تستبطنه فى أغوارها ·· هو مدى امكانية شمولها لغير ابداع الحكيم ··

فالتعادلية ·· الفكر ، والتعادلية المذهب ربما تجيز لنا أن نتساءل :

● هل ·· بعد أن استوعبت التعادلية عالمنا من خلال رؤية الحكيم ومنطق تفكيره وأسلوبه فى النظر الى موقف الانسان من الكون والمجتمع بل حياتنا كلها ·· هذه النظرة الشـــاملة ·· هل يمكن أن نرى ابداع الآخـــرين فى أدبنا العربى والآداب الأخرى على ضوء هذا المذهب ·· ؟

ان هذا التساؤل كان الوليد الطبيعى ، لمقولة أطمئن اليها ، هى أن التعادلية لو لم يكن لها كل ما سبق أن حققته، لما فتحت أمامنا كل هذه الآفاق للبحث والدراسة ٠٠

اذن ٠٠ فحين نمضى جاهدين لنرصد امكانية التعادلية فى تفسير أدب الآخرين من المبدعين ، فهى مجرد محاولة للبداية ، تفتح هذا الباب لكل من شاء مواصلة البحث فى ذلك المجال تطبيقا على شتى فنون الابداع الادبى ٠٠ بل ما يعن للباحث فى سائر الفنون الأخرى ٠٠

ومن ثم أعاود التساؤل :

● هل للتعادلية بحق أن تفسر ابداع الآخرين فى الأدب ؟

●وهل الآداب الأخرى يمكن النظر فيها من منظور التعادلية ؟

● ثم ٠٠ هل يضيرنا أن نتلمس ملامح هذا وذاك قدر استطاعتنا ، وبالقدر الذى يتناسب وهذه العجالة ؟ ٠٠ وعندما نمضى لنرصد السمات التعادلية فى الأدب راعينا أن نحقق ذلك من خلال أعمال أدبية ذائعة وحققت موقعا من العالمية ٠٠ حتى تكون قريبة الى اهتمامات مساحة شاسعة من المثقفين والقراء ٠٠

التعادليــة والأدب العــربى

ومما يستوقفنا فى أدبنا العربى من الابداع الذائع ، أعمال أمالها مكان الريادة وأمالها شرف الاضافة والتجديد ·· وان اقتصرنا فى ذلك على مجال الرواية ·· تاركين المجال أمام من شاء أن يتعرض لفنون الابداع الآدبى الأخرى كالمسرحية والقصة والشعر ولا يعنى هذا اننا بما نقدم عليه فى هذه العجالة قد بلغنا فى هذا المضمار ، فهذه مجرد بداية ، وما نخضعه لهذا النوع من الدراسة هو مجرد أمثلة ··

● وتعتبر رواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل من الأهمية بمكان بعيد ، وقد رصد لها التاريخ الأدبى فضل الأولوية المطلقة ، كشكل مستجد على أدبنا العربى ويدور محورها حول « حامد » الذى جمحت به مشاعره ـ وهو مالك الأرض والسيد ـ فيعانق ويقبل « زينب » الفلاحة الأجيرة ·· وينشأ الصراع بين حبه لها ·· والفواصل العاتية التى تفرضها طبقته ، مما يقود الى اغلاق السبل بين الطبقتين ··

ولا يصبح هناك غير التأسى والبحث عن عزاء ٠٠ يقول الدكتور محمد حسين هيكل على لسان البطل « خفف عنك يا حامد ، فالخطب أهون من أن يبلغ بك اليأس » ٠

فان المناخ العام لهذه الرواية يصور ضراوة الطبقية في المجتمع ، حيث ناس فوق وناس فى الحضيض واذا كان للبناء الاجتماعى السوى هو الذى تتوازن فيه العلاقات(١) ٠٠ فان الأمر فى مجتمع هذه الرواية وهو على هذا الوضع يصبح الخلل التعادلى أمرا واضحا ٠٠ حتى يكاد هنا ليمثل الابتلاعية من طبقة عليا لامال طبقة دنيا ، وتجهض العواطف ٠٠ كما نجد أن الضعف الانسانى فى الطبقتين ممثلا فى حامد من جهة وفى زينب من جهة أخرى. يؤكد افتقاد القوى المعوضة ، التى تسعى التعادلية الى الكشف عنها فى ذاتية الانسان وشخصيته ٠٠

● وتستوقفنا رواية أخرى تمثل علامة متقدمة فى الفن الروائى فى الأدب العربى وهى « دعاء الكروان » للدكتور طه حسين ، فهى تمثل من حيث القضية جانبا حيويا فى المجتمع المصرى ،حين تطرح قضية البداوة والحضر للمناقشة من جانبها الاجتماعى ٠٠

اننا هنا ازاء نمطين للحياة ٠٠ أحدهما وليد الفطرة بكل ما تمثله البيئة البدوية من موروثات ٠ ومجمع الحضر بما يشمله من انفتاح جزئى فى زمن الرواية ــ ومن ثم

---

(١) عماد الدين عيسى : يوسف السباعى فلسفة قلم وحياة .

يكون من الواضح اختفاء التوازن بين المجتمعين وافتقاد معالم التعادلية بينهما ٠

فنجد أن « هنادى » قد ضاعت سواء بالحياة وبالموت، لأنها غير مسلحة أمام اغراءات الحضر ، ومضت فى الغواية لأنها افتقدت الارادة كقوى معوضة تحجب ضعف الانسان أمام نوازعه ٠٠ وسهل وجودها فى الحضر أن تجرفها الخطيئة ولم تخرج منه الا وقد كتب عليها حكم بالاعدام ٠ وعلى النقيض منها نجد أن شقيقتها « آمنة » التى تسلحت بالقوى المعوضة فى ذاتها رافضة ضعف الأنثى ، متسلحة بالخبرة السابقة ـ أى تجربة هنادى ـ وتنجح بهذا وذلك فى تحقيق موقف تعادلى حتى ازاء عاطفتها ـ وليس غريزتها فى مواجهة ظلم الحضر فى نظرته التى تستسيغ استغلال فطرة أهل البداوة وتأكيد وعوامل الابتلاعية فيه خاصة فى جانبها الاخلاقى ٠٠

● ثم نلتقى برواية « سلوى فى مهب الريح » لواحد من أبرز رواد القصة العربية « محمود تيمور » وسلوى تتصرف كنمط للشخصية غير التعادلية ، حيث تلجأ الى الانتهازية ولم تسع الى الكشف عن قدراتها أو العمل على تحقيقها ، ولكن اكتفت بالتعلق برفاهية حياة الآخرين والسطو على هذه الحياة ما أمكن والنتيجة الطبيعية أن صارت فريسة الابتلاعية المتمثلة فى أسرة «الزهيرى باشا» ٠٠ وحتى الباشا ٠٠ فصارت خليلة ، وباعت جسدها ٠٠

ولكن تبدأ الصحوة فتعترف بمسئوليتها لما آلت اليه وبعد فوات الأوان تدرك تعادلية وجودها : أى فى الحرية والارادة المفتقدتين ٠٠ حيث تقول « انها الاقدار العجيبة

تلك التى ترسى الى هذا المصـــير . حقا اننا لا قبل لنا بمقاومة تلك الأقدار ، ولكن ألسنا نحن المسئولين عما نقترف من ذنوب ؟

لست خاطئة بالقدر الذى يبدو او لست على الأصح خاطئة وحدى .. أليس يوسف شريكى ؟ .. ولكن لم الوم المسكين وقد كان فى ذلك محدود بعاطفته المشبوبة وحبه الفوار .. لا خاطيء سواى .. يا الله شد ما أنا بغيضة كريهة .. »

ومن ثم تمضى « سلوى » لتتخلص من تلك الابتلاعية ولتبدأ من جديد البحث عن القوى المعوضة لتنطلق بها فى اطار من تواؤم الشخصية وتعادليتها ، ألا وهو العمـــل الشريف مهما كان بسيط كحائكة لدى الست « أنصاف » .

● .. لقد وردت فى التعادلية مقولتان تســـتحقان العودة اليهما :

«ان الاقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب .. لأن معناه جاء بعد شك .. والقلب لا يشك لأنه لا يفكر انه يشعر .. انه فجأة يضيء كمصباح الكهرباء ..

ويقول أيضا : « انى لا أعيب علي العقل أن يشك .. لأن وظيفة العقل هى الشك .. أى الحركة(٢) .

● ألحت على ذهنى هاتان المقولتان ، عندما تأملت رواية « سارة » لعميد الفكر العربى عباس محمود العقاد .. ففى هذه الرواية يدور الصراع بين القلب والعقل .. قلب سارة التى تهفو الى الحب من أجل الحب ، وتأكيد

---

(٢) توفيق الحكيم « التعادلية » ص ٣٠ .

أنوثتها فى كتف رجل ــ الى جانب من عرفت ــ تشعر انها أعجز من عقله ·· بينما هو (أى همام) يعشـــقها بعقله ، ويضعها تحت البحث والمناقشة ·· وعندما يمضى العقل بعيدا فى ذلك تتولد ثورة الشك لديه ، وينشأ بين الاثنين لعبة صراع القلب أو العقل ·· تدور القصة وتبدى وكأن كل منهما يحاول تأكيد القوى البارزة فى شخصيته ، أو هى القوى المعوضة ضد ابتلاعية الآخر و « همام » يمثل العقل ولأن العقل يفكر ، فلا يرضى أن يخضـــع للقلب ، والأخير لأنه للمرأة التى تسعى لتأكيد أنوثتها وعاطفتها تريد تحقيق ذلك ·· وكذلك تجمعت أسباب الهيام من ألفة الى متعة الى تفاهم الى اتفاق فى أمور الى اختلاف فى غيرها حتى استحكمت أواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة · فلما انشأ يحاسبها على حقوق الوفاء ويتقاضاها أمانة الاخلاص لم يكن ذلك غلوا منه فى تنزيه العصمة الانسانية ولا غلوا منه فى تنزيه عصمتها ، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لأنه حتم لا مندوحة له عنه ، ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها ·

والا فماذا هو صانع · أيفارقها ؟ ·· ذلك عسير · أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحده ؟ ·· ليس ذلك بيسير ··

وهكذا يتفق أن يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة ، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين(٣) ·

---

(٣) عباس العقاد : سارة ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ ·

ولأن كل من سارة وهمام لم يلتقيا قلبين ولم يلتقيا ايضا عقلين ·· فلم يتحقق التوازن فى العلاقة الشعورية· وبذلك افتقدا سمات نمط الشخصية التعادلية ، واصبح كلاهما يفاجىء الآخر بنزعات ابتلاعية جعاتهما على طرفى نقيض ··

● وبحثا عن سمات التعادلية لدى الأديب الكبير يوسف السباعى ·· يستوقفنا فى ابداعه روايته الشهيرة « رد قلبى » ، حيث نجد شخوص هذه الرواية تسعى بها الأحداث فى بيئة تفتقد التلاقى دين طبقتيهما فنرى « على » فى رد قلبى يبحث عن السبل ، حتى يكون تعادليا من خلال اكتشاف القوى المعوضة التى تغير وضعيته الطبقية ·· انه يسعى الى تحقيق التوازن مع الواقع رافضا ان تجنح به رومانسيته ، وأن يحصل على ما يريد بغوغائية او بتملك ابنة الباشا « انجى » فى الخيال ثم يستسلم لذلك ·· كذلك سلك « على » ازاء مهاترات شقيقها « علاء » ·· أسلوبا ينم عن التوازن الخفى فى مكونات شخصيته ·· وهذا من طبيعة الشخصية السوية المتسقة مع ذاتها ومع غيرها ·· لسمة من سمات التعادل · فكان مقنعا ــ حتى فى مرضه ــ انه أحق بحبيبته التى تبادله حبا بحب ، ويتحول هذا الموقف فى قوة دافعة فى البيئة المحيطة ــ أى والده ــ واذا بالشيخ عبد الواحد الجنايني يطلب ابنة الباشا لابنه بغض النظر عن عواقب ذلك ··(٤) ··

وبرغم الاطار الرومانسى الذى أحاط بهذه الرواية ظاهريا تبرز أيضا الواقعية المحملة بالرومانسية ، فان

---

(٤) يوسف السباعى : رد قلبى .

عوامل الدفع الذاتى بين شخوصها وتدفق الأحداث فيها ، كل ذلك كان يهدف تحقيق هدف اسمى وهو التوازن بين المجتمع ككل ·· أى تعادليته ··

واذا كانت الرواية قد تفوقت على الواقع خلال فترة الثورة بالحفاظ على هذه الأخلاقيات ، خاصة في موقف مصادرة ذهب الأســـرة ، لم يتحول الضابط الى ناهب قصور ، بل طواعية قدم لها ما تريد الاحتفاظ به حينما قالت « رد قلبى » ··

الا ان الواقع الحياتى والاجتماعي قد لا يسهما الكثير من التغيير الابتلاعى ·· فطفت كل النقائض حتى كادت ان تكون سمة العهدفى التعامل بين الطبقات ··

● ومما أكد على ضياع السمات التعادلية فى البناء الاجتماعي خصـــوصا فى جانبه الأخلاقى فنان الرواية العـــربية نجيب محفـــوظ وذلك فى روايتـــه « اللص والكلاب»(٥) ، فانها تثير قضايا ما بعد الثورة ، انما يبرز ابتلاعية هذا المجتمع للقيم الأخلاقية التى كانت سائدة داخل الانسان وظهور سلوكيات جديدة لتحل محل ماتعارف عليه ·· حتى صار بطل هذه الرواية ، الذى كان يضجر ، أنه لص من أجل الاقتيات ، وهروبا من الفقر والحرمان ··

حينما يحاول « سعيد مهران » أن يبرأ مما هو فيه بعد ان أمتلك القدرة على الوقوف في وجه ســـائر الظروف

---

(٥) اللص والكلاب : ط ٧ صدرت عام ١٩٧٦ الناشر مكتبة مصر ·

الطاحنة ، اذا به يكتشف انه محاط بالكلاب من كل نوع ٠٠ وكلما استهدف تصفية أحدها ٠٠ وليكن « رؤوف علوان » ليرفع الضغط الذى يحيط به فيكتشف أنه يدخل فى سلسلة من سفك دماء الأبرياء وحتى لا يصير لصا حتى النهاية ، لابد أن يصطدم بكل الكلاب والا عقرته ٠٠

لقد أثارت هذه الرواية اللاتعادلية فى المجتمع فى تلك الفترة ، وكيف سادت الابتلاعية بشتى أشكالها فعملت على هدم البنيان الاجتماعى الأخلاقى ٠

● ثم يستوقفنا على نفس الدرب ٠٠ عمل روائى يعتبر فى مضمار قوة التعبير وقوة التفسير « قمة فى تحقيق هذين الهدفين ببراعة وشجاعة نادرتين فى هذا الزمن أو قل هى شجاعة الفضيلة وقوة الحق ٠٠

٠٠ تجلى ذلك فى رواية « هارب من الأيام » للأديب الكبير ثروت اباظة ، والرواية تنطلق من فكرة بسيطة جدا ولكن فى مغزاها تكاد تكون تفسيرا لعهد كامل من سيطرة العمل أو الحكم بالمفهوم التعادلى ـ انها قوة النقد فى وقت صار فيه العمل ـ بالمصطلح التعادلى ـ فوق النقد وفوق الدستور ٠

وأما حال الفكر اذا أصر على أن يعلن أنه موجود فهو فى مكانة التبعية للعمل ٠٠ ومن ثم فمجىء رواية هارب من الأيام تعنى أن هناك فكرا يرفض التبعية وأن لم يكتف بذلك بل قام بتعرية العمل على حقيقته ، وافرغ احشاءه ليطلعنا على ما تأصل فيه من سوءات وبشاعة ٠

والموضوع فى الرواية وببساطة شديدة ـ ان شابا ظل يطمح فى أن يكون لديه (مقروطة) أى (بندقية) مختزلة

الجســـم ـ وعندما يصبح الحلم حقيقة يتحول من مجرد احساس بالفروسية الى توظيف القوة الغاشمة بل لا مانع من أن يكون فى زمرة الأشرار ·· يهدد أمن الآمنين وتحت ادعاءات لا تنطلى الا على السذج ، او على من هم من شاكلته من قطاع الطرق ولصوص الأرزاق · ومن ثم فقد أخذ بقوة السلاح الغاشمة يزين جرائمه ادعاء ســـلب الأغنياء أموالهم ليتعيش المحتاجون بها ، وبهذا أصبحت له الســـيطرة بينما فى داخله تنمو رذائل الجريمة ويظل يطارده شىء خفى ·· ربما العقاب المعـــلق على الغيب وهكذا يمضى حاملا عوامل هدم الذات وكأنه يهرب حتى من الأيام ··

وقد يوحى الموضوع بغير كل هذا . ولكنه سيؤكد ماهو أسوأ مما طرح ··

فهذه الرواية بالمفهوم التعادلى ، سواء قوة التعبير « التى تميز بها الكاتب الكبير وبقوة التفسير التى نجح فيها بمهارة المبدع ، فقد جاء علاعمة استفهام ضـــخمة لتسال أين اتزان الحياة فى المجتمع الذى تعبث به معاول الهدم ؟ ··

ومناخ الرواية يثير ـ أيضا ـ جوا عاما ابتلاعيا فى المنظور التعادلى ، فعندما تسيطر مثل هذه الأحوال على مجتمع بأسره ويصبح هذا السلوك عملة سائدة ·· فهنا تكون الابتلاعية الشاملة وكأن المرض بالعـدوى مسـار كالوباء ··

ثم ان شخصية بطل الرواية ، هو أيضا تحول من الحلم الى اللاعقل ·· انه فقد اتزانه وتعادليته ومن ثم انعكس ذلك سلبا على ما يحيطه ··

● فاذا كان هذا من الأدب الذى يكشـــف عوامل الابتلاعية واللاتعادلية أى عدم الاتزان فى العناصر الحيوية المكونة للمجتمع البشرى خصوصا فهناك أكثر من عمل يستوقفنا بما يثير من غرابة وهما « لغة الآى آى » للطبيب الأديب الكبير يوسف ادريس ، وبيت من لحم » ٠٠

ولعل المجموعة القصـــصية الأخيرة جديرة فى تلك العجالة بوقفة ، خصوصا القصة حاملة عنوان المجموعة بحثا عن التعادلية ٠

ولاشك أن قوة التعبير لدى يوسف ادريس كامنة فى عبقرية بنيوية القصة القصيرة ، حيث لا تنفصل اللغة عن بناء الشكل المميز للقصـــة عنده ولتنطلق بحثا عن قوة التفسير فى قصة « بيت من لحم » ٠

ومحور الموضوع فى القصة شيخ ضرير ، يسكن مع عدد من الشقيقات العوانس وقد تزوج واحدة ، وكان لا يميز زوجته هذه الا بخاتم فى أصبعها ٠ ويجعل يوسف ادريس الشقيقات يتبادلن الخاتم واحدة بعد الأخرى ليضاجعهن الشيخ الضرير ٠ ويواصل الكاتب تصوير هذا الهزل ، وكان الشيخ يعرف ، ولكن أعجبته اللعبة فتغاضى عما يقع بين ليلة وأخرى ٠٠ فى هذه الحالة تبدو القصة وكأنها ركبت تركيبا ، ودخلت عـوامل التأليف والتوفيق لتؤكد الصناعة المفتعلة فى هذه القصة ، ومن ثم اصطنعت صورة منفرة للمرأة هى صورة ثلاث شقيقات أى جمع مؤنث ، وهذه صورة المرأة عنده ٠٠ وهو افتراء بلاشك كذلك جعل رجل الدين عميا ، وحين تكشف له شعوره بشىء شاذ

يتجاهل الأمر ويستمرىء الخطأ والخطيئة ، برغم أن هذا الشيخ من حفظة القرآن وقارئيه ..

هذه الصورة هى التى حاول أن يقدمها يوسف ادريس يعنى بها بعض أنماط المجتمع المسلم .

ووقفة ازاء قوة التفسير وهى بلاشك فى موقع النتيجة من المقدمة أى من قوة التعبير ..

ولأن علامات التأليف ، وهو غير الابداع ، تبدو صارخة فان الحكم المطلق على مجتمع الاناث وعلى حفاظ للقرآن وحامله وقارئه . ليأتى من باب المبالغة الشديدة ، ان لم يكن من باب الافتيات اذا لم يحتمل الأمر برمته ماهو أبشع ..

ولذلك فالسؤال : ترى أهذه الابتلاعية التى اتسم بها هؤلاء وهذا .. هى حقا فى مجتمعنا الاسلامى ؟؟ .. أم هما أمران مدسوسان عليه ، قد قصد بهما محاولة التشويه والتشكيك فى حقيقة العلاقات الانسانية الراسخة خصوصا فى جانبها الاخلاقى فى الدين ..

ان لعبة الموافقة والتأليف البارزة فى صـــنعة هذه القصة ، وهى هنا « قوة التعبير » ، تجعل أمرها بالنسبة لـــ « قوة التفســير » غير متعادلتين فى « الأثر الأدبى » بالمنظور التعادلى .. وهو الشـــرط ــ فى رأى الحكيم تعادليا ــ لكى يكون ما يكتبه الكاتب يهدف هدفا ذا قيمة مستمرة ، وليس مجرد شكل مفرغ يزول وينتهى بانتهاء تقليب الصفحات .. وزوال الموافقة ..

● وهذه رواية « قنديل أم هاشم » للأديب الكبير يحيى حقي ·· يضرب في أعماق وكيان الانسان في الرصد التالي :

« كان جدي الشيخ رجب عبد الله اذا قدم الى القاهرة وهو صبي مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، ومعه أبوه اذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب – وعزيزة التقليد تغني عن الدمع – فهوى معهم على عتبته الرخامية يرشـقها بقبـلاته ، واقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه »(١) ·

وفي موقع آخر يبدأ يلمس جانبا عميقا في شخصية هذا الانسان :

« ونجد اسماعيل – الشاب – يقف بجوار الضريح ويستمع لفتاته تهمس « يا أم هاشم ياستاره على الولايا ، لا تغضي عينيك ولا تشـيحي بوجهتك ، تمد اليك يدا مسترحمة فخذ بها ·· الخ ·· »(٢) ·

ونستخلص عند نهاية هذه الرواية القصيرة أنه ينبغي تحقيق التعـادلية بين العـلم والدين ·· بين العلمانية والروحانية :

« كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوروبا لشهق عجبا · استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة في الآلات والوسائل ·· اعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه ، فبارك الله علمه ويديه »(٣)

---

(١) قنديل أم هاشم · يحيى حقي · دار المعارف – اقرأ (١٨) ط ٣ · ص ١ ·

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ ·

(٣) المرجع السابق ص ٥٧ ·

التعادليـــة والآداب الأخـــرى

حينما نمضى فى التعرف على مقدرة التعادلية فى استغراق الآداب الأخرى ، نضـــع فى الاعتبار ان تكون بعض نماذج روائع الأدب العالمى موقع الدراسة ، التى نحن بصـــددها ، ولذلك جاءت لتمثل الآداب فى اللغات الحية ٠٠ ومن ثم تتواصل هذه النظرة السريعة لتشـــمل روايات من الأدب الأســـبانى ، والألمانى والفرنسى ، والأمريكى ، والروسى ، والانجليزى ، والايطالى ٠ مراعين قيمة العمل الأدبى ومكانة كاتبه عالميا ٠٠ فهذا التخير كما نهجنا فى الأدب العربى جاء لأعمال تبحث التوازن بين قوة التفسير وقوة التعبير ٠٠ بل وابراز ما للشخوص فيها من تعادلية أو ابتلاعية ٠٠

● وبداية نمضى مع درة الأدب الأسبانى رواية «دون كيخوته دى لا منتشا »(١) للكاتب الأسبانى « سفدراميجل دى سرفانتس » واذا كانت هذه الرواية لها فضل الريادة

---

(١) نشر الجزء الأول عام ١٦٠٥ م والثانى ١٦١٥ ٠

فى الأدب العالمى فى موضوعها حتى أصبح اسم « دون كيشوت » يطلق على كل من ينهج نهجا اصلاحيا متفانيا فى ذلك على حساب مقدراته الشخصية ، بل قد يضحى بمصالحه من اجل الهدف ، وفى أسبانيا أصبح دون كيخوته رمزا للبطل والبطولة الشعبية ودليلا لروح الشعب فى صموده ونضاله · ولذلك لم أعجب عندما زرت العاصمة مدريد ـ ، أو « مجريط » كما أطلق عليها الاندلسيون حينما انشأوها قلعة لحماية دولة الاسلام ـ ووجدت فى «بلازادى أسبانيا » (أى ميدان أسبانيا) ·· حيث المسرح الملكى الذى أقيم على أنقاض قصر عامل مجريط وحيث كان هنا مكانه من القصبة ، فوجدت على مدخل المسرح قد نصب تمثالان أحدهما لـ « دون كيخوته » يمتلى حصانه وتابعه « سانشو » يمتطى حماره(٢) · انه لتخليد وأى تخليد لبطلى هذه الرواية الخيالية المخلدة ·

ودن كيشوت هذا قد قرأ كثيرا ، وأصبح يؤمن بكل القيم التى يقرأ عنها وصار داعية الحق ، الخير ، الشجاعة الفداء ، تبجيل الجمال ، وتخلق بكل اخلاق الفروسية ، او هكذا توسم فى نفسه واعتقد أنه الفارس المطلق وأنه أقوى من الجيوش طالما يسعى من أجل هذه المثل · وأن عليه انقاذ البشرية من كل الشرور ··

وبالتالى كان يدخل فى معارك ـ كما يخيل اليه ـ يدحر فيها القائمين على الحكم ظلما وعدوانا ، والذين لا يحكمون

---

(٢) يصدر للمؤلف كتاب يشمل تفاصيل جولته ورحلاته الى شمال بعض مدن أسبانيا ، المانيا الغربية ، سويسرا ، فرنسا ، اليونان ، ودولة المغرب .

بالعدل بين الناس كما يقاتل الأمير لأنه يخدع المحيطين به ، ويطارد اللصوص ..

وإذا نظرنا الى هذه الرواية فى ضوء التعادلية ، سنجد أن دون كيخوته قد أصبح تحت سطوة أفكاره المثالية ، وهو بذلك لا يحقق التوازن بين الواقع والخيال ، بل انه يرتفع بالواقع الى ماالديه من مثل مطلقة ، حتى لأنه نمط الشخصية الأمثل فى التعادلية المثلى .. ولكنه من زاوية اخرى كان بكل هذه المثل نمطا ابتلاعيا رهيبا لتابعه « سانشو » ، الذى فقد كل سيطرة على ارادته وصار يتوهم الخيال واقعا ..أو المستحيل حقيقة ..

وإذا كان دون كيشـــوت ، أيضا صـــار فوق درب المستحيل ، واعتبر انه يطوعه لارادته .. فهذه المعانى التى بلغت بها قوة التعبير شأوها .. فانها جاءت ثرية كل الثراء فى قوة التفسير وهذا هو قمة التأثير مما جعل أسبانيا ترى فى بطل هذه الرواية الرمز لروح الشعب الحر ، واصراره على تأكيد ارادته فى مواجهة الظلم ، والخداع . والسرقة .. واعلاء شأن العدل والحقيقة والأمانة .. الخ ..

● واليك الأثر الأدبى ذو المكانة العالمية .. « آلام فرتر » ، الرواية التى أبدعها ببراعة الأديب الألمانى الأشهر « جان فولجانج جوته » . والتى قال عنها الدكتور طه حسين : « ألف جوته آلام فرتر فلم يمض على انتشاره اشهر حتى عرفته ألمانيا كلها ..

واضاف « ومن الناس من يأخذ هذا الكتاب على أنه يحمل الشباب على الانتحار ويرغبهم فيه ، ويستدل على

ذلك بالعدد الوافر الذى انتحر من الشباب فى ألمانيا وفرنسا وغيرها من بلاد اوروبا عند قراءته ، ويخيل الى ان هؤلاء لم يوفقوا الى القصد ولم يهتدوا الى سواء السبيل(٣) ٠

والشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية هم : شرلوت ، فرتر ، والبير ٠٠ ثالوث الحب الرومانسى ، وتحـــركهم المعانى الســـامية للحب ولعل ذلك يذكرنا بـــ « الثالوث الذهبى » الذى شاع فى العهود اللاحقة ويصور ما آل اليه امر الحب ، تحت غياب الكثير من القيم داخل المجتمعات الحديثة ، واختلال التوازن فى العلاقا تبين الأفراد بل داخل الفرد ذاته ، وتنتصر القوى الابتلاعية على الذات ومن ثم أصبح الثالوث يعنى : الزوج والزوجة والعشيق ، أم الزوجة والخليلة ٠ لجأنا الى هذا الطرح المقارن لنبرز المعنى العميق والعظيم الذى كانت تتمثله الآداب فى عصر « فرتر » ٠٠

وايضا « ثم رات تلقاء ذلك فرتر وقد اصبح اليها حبيبا وعليها عزيزا ، ووجدا أن نفسيهما تآلفتا منذ تعارفا وأن عشرتهما المستمرة ومودتهما المتبادلة وعواطفهما المتجددة تركت فى قلبيهما اثرا لا يعفو على الزمان ولا يبيد(٤) ٠

هكذا ينمو الحب ويمضى ليؤكد عفته وسموه ٠ وقد كانت القدرة على التفانى فى المحبوب والتضحية ، الى

---

(٣) صدرت عام ١٧٧٤ م ترجمها الى العربيـة الاديب العلامة احمد حسن الزيات وقدم لها عميد الأدب العربى د. طه حسين ٠

(٤) جوتــه: ا لام فرتر ص ١٤٨ ٠

اعلاء شأن العفة ، هى أسمى القوى المعوضة ، التى يتكشف عنها الانسان النبيل أو حتى تكون الوازع للنوازع الخيرة وتجعل للحب قيمته السامية فيحل كل ذلك محل الأهواء والنزوات ٠

بل ان الاعتراف بالخطأ فضيلة كان من أيسر الأمور على المحب النبيل ومن سمات شجاعته أن يقول لمن تزوج محبوبته لكما كل السعادة ٠ انها لشجاعة عاطفية ومواجهة شريفة لأنه أما حب وأما عفاف ٠٠

اما اذا شاء أن يبرز العجز فى الانسان ويخشى هنا الحماقة فهنا الموت شهيدا أولى به ولا يدنس حبا شريفا ولا شرفا مصونا ٠ ومن ثم نجد (فرتر) يصارع ضعفه فى اعتراف لصديق :

« هل افكر يوما ياوليم ان ادنس تلك العفة واخون هذه الثقة ؟ ٠٠ حاشاى أن أفعل ذلك فلست خبيث الدخلة ـ فاسد القلب الى هذا الحد نعم أن قلبى ضعيف جدا ضعيف ٠٠ ولكن ليت شعرى لم لا يكون ضعفه من فساده ؟(٥) ٠ ان قمة التوازن فى الشخصية التعادلية فى اعرابها عن نبل الأخلاق أن يجد فى الاعتراف بالحق كل الفضيلة ٠٠

وهذا ما يأتى أكثر مباشرة وهو يخاطب صديقه الذى حظى بالزواج من « شرلوت » :

« لقد جزيتك يا ألبير على ودك شر الجزاء ٠ فاعتب على وسامحنى فقد كدرت صفاء بيتك وبذرت التهمة والحذر

---

(٥) المرجع السابق ص ٤٨ ٠

بينك وبين زوجك ·· استودعك الله · سأجعل لكل ذلك حدا وعسى أن يسعدكما شقائى ـ ويوجدكما فنائى أليير · اليير ·· أسعد هذا الملاك وطىء له أكناف الراحة والغبطة ·· والله يفيض عليك خيراته . ويوليك رحمته وبركاته»(٦) ·

انه يرى ان يختفى من حيـــاة محبوبته ليهبها غريمه الصديق أو صـــديقه الغريم ، فذلك زمن يعتبر فيه الموت لاسعاد الحبيبة فروسية بل نجومية ، فالقاعدة : العذاب المستعذب فى الحب ومن اجل المحبوب أمر مستحب يسعى اليه المحبون العاشقون ولذلك يخاطب « شرلوت » قائلا : « قدمى الكأس ياشرلوت فليس بى رعدة ولا وجل ، قدمى الكأس المخيفة الباردة اذق بها سكرة الموت · أنت التى تقدمينها الى فكيف اتردد أو احجم ؟ كذلك يارب تتم رغائبى وتتحقق آمالى فى الحياة ! سأقرع أبواب الموت النحاسية غير هياب ولا واجف »(٧) ·

● لقد كتب توفيق الحكيم فى تعادليته : « من يأتى عملا يضر الغير ·· يستطيع أن يأتى عملا ينفع الغير »(٨)

هذه المقولة تصدق كل الصدق على المحور الرئيسى لاحدى روائع الأدب العــالمى وهى « البؤســـاء » للأديب الفرنسى الكبير فيكتور هوجو ·· مجدد الأدب الفرنسى وأمير بيانه فى القرن التاسع عشر ··

---

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ·

(٧) المرجع السابق ص ١٧٣ ·

(٨) توفيق الحكيم : التعادلية ، ص ٤٤ ·

من منا لم يقرأ هذه الرواية ولم يهتز وجدانه بما شملته من عمق التفسير لحنايا النفس البشرية وصـــراعها بين عوامل الخير وعوامل الشر ، وهى أيضا التى جاءت قوة فى التعبير الأدبى البليغ ، خصوصا والذى قام بتعريبها الشاعر المقتدر حافظ ابراهيم ٠٠

وعظمة البؤســـاء انها تؤكد على حقيقة فى النفس الانسانية وهى أن الانسان ليس شــرا كاملا وليس خيرا مطلقا ومن نظن فيه الشر ، لنعقتد أيضا انه ينطوى على خير كبير ٠٠ والعكس صحيح أيضا ٠ ولكن ما يركز عليه هوجو هو نوعية الشخصية التى نفترض فيها ذلك ٠٠

فشخصية « جان فالجان » تعرضه الرواية على انه يحتوى بعض الشر ونوازعه فى ذلك محـــدودة ، ويمكن السيطرة عليها، بل الى جانبها داخل نفس الرجل توجد شخصية « مادلين » ٠انه جان فالجان فى صورته الشهيرة الخيرة ٠٠ على عكس ذلك نجد شخصية « جافير » الشرطى القح فى عمله وكيف يصبح شريرا كل الشر وهو يؤدى واجبه ، لأنه يفعله وهو يســقط كل نوازعه الشـــخصية الـــكريهة ، فلا يبدو انه يتفانى من أجل القـــانون ولكن من أجل شىء بشع فى داخله يجىء وصفه فى البؤساء : «زعم بعضهم أن الكلب اذا وقع على الذئبة او لدها جروا ، وان الذئبة تخشى أن هى انتظرته حتى يشب أن يعطف على صغارها فيقاتلها ، فلذلك تنحى عليه وهو صغير ، فلو أننا جئنا بذلك الجرو واسكناه فى هيكل بشــرى لتبين فيه القارىء شخص « جافير »(٩) ٠

---

(٩) فيكتور هوجو : البؤساء ، ص ٦٥ ٠

. فاذا كان جان .فالجان الذى ارتكب صغيرة ، وهى سرقة رغيف خبز لأنه جائع ، فظل مطاردا من أجل ذلك ، هو ايضا مادلين النقى الخير الذى يسعى لانصاف المظلومين والسلوك الأخير ترجمة كاملة للقوى المعوضة للشخصية التعادلية ، والتى يكشـــف « جان فلجان » فى داخله ، يقابله قوة قمة فى الابتلاعية هى شخصية « جافير » الذى يعمى عن كل حسنات جان فالجان » وسلوكياته الخيرة ، ويسعده أن ينقض عليه ويهدمه هدما ٠٠ واحدا فى ذلك ارضاء .لشهوة فى داخله ونزعات شريرة تســيطر على دخيلته وهكذا تمضى أحداث البؤساء « يشدها الصراع بين النمطين « التعادلى » والابتلاعى ٠٠

ان الشر الذى وضع « جان فالجان » فى البداية فى موقع الأشرار يقابله كما أسلفنا قوى ايجابية وخيرة يمكن ان تعود على المجتمع بالكثير اذا اخذ من الشرير ما فيه من خير لينفع المجتمع ٠٠ سدادا لما أصابها به من جرم ٠٠ هذا ماكان يسعى اليه « جان فالجان » ولكن كان له « جافير » بالمرصاد ٠٠

وفى جانب آخر يسقط الضحايا لهذا الصراع غير المتكافىء ٠٠ فنجد « فانتين » هذه الأرملة فجأة تلوكها الالسن دون أن يعرفوا أن طفلتها من زوج متوفى ، ويتحول كل من حولها فى المصنع الى أنماط ابتلاعية ينفثون شرورهم حولها حتى تطرد من عملها ، وتلجأ الى حياة البغاء لتعيش طفلتها « كوزيت » بل تبيع شعرها وفى مرة أخرى أسنانها ٠٠ بل لتضحى بجلدها آن استطاعت لتعيش الطفلة البريئة معـززة ٠٠ ولـكن هؤلاء الذين خدعوها بادعاء رعايتها جعلوها خادمة وساموها العذاب والشقاء ٠ وكلما حاول

« مادلين » أن ينقذ أمثال «فانتين »و « كوزيت » من التعساء . يظهر فى أثره جافير كالشيطان ، وعندما يدركه اذا به قد وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا ،وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية دونها بهيمية البشر(١٠) .

ان روعة البؤســـاء ، فى أن نمط « جان فالجان » اكتشف فى نفسه القوى المعوضة امام ضعفه وازاء ابتلاعية الآخرين . بل انه رفع من عظمة هذه القوى المعوضة ، عندما جعل مصدرها عمق الايمان بالمثل والأخلاق والقدوة التى يتمثلها الدين بعدما غرسها فيه رجل الدين فى ليلة كريهة ظلماء من حياته فاذا بها الكشف واذا بها الهداية .. واظهار القدرات المعوضـــة التى تنطوى عليها النفس الانسانية ..

● « رسكو لنكوف » .. هل مازلنا نذكره .. ؟ فمن من المثقفين لم يعرفه ويقف ازاء هذه الشخصية وقفة تأمل عميق ، فهى نمط يتجاوز عصره ونلمسه فى كل زمان .. حتى فى يومنا هذا وربما هذه هى عظمة «الجريمة والعقاب» رواية الأديب الروسى الكبير « دستوفسكى »(١١) .

ولنحاول أن نتعرف على رسكو لنكوف » من الداخل .. « لا أريد أن أعيش لنفسى والا فخير لى الا أعيش ، انى لا أستطيع أن أرى أمى وهى تموت وأسير عنها انتظارا للوقت الذى تتحقق فيه الســـعادة للجميع .. اننى انما

---

(١٠) فكتور هوجو : البؤساء ، ص ١٨١ .

(١١) الجريمـــة والعقـــاب : نشرت عـــام ١٨٦٨ فيودور دستوفيسكى .

اضــــع حجــــرى فى بناء الســـعادة للجميع وبهذا يهدأ قلبى »(١٢) .

وعندما نعود الى التعادلية تســــتوقفنا هذه العبارة « .. فأزمة الانسان اليوم هى حربه ضد نفسه .. فهو ليس له صريع آخر غير نفسه لم يعد فى سروره يرى سوى حريته المطلقة ، لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ، التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب نضاله ، وتتطلب تفكيره »(١٣) .

ومن هنا نجد أمامنا نمطا قد فقد اتزانه وانهارت لديه القيم الايمانية والانسانية ، واذا به شخص آخر فيسفك دم « ايفانوفتا » العجوز المرابية ليســـتولى على ماديها من مال ، بل يهوى ايضا بالبلطة على اختها « ليزافتا » وعندما جاءت الصحوة ، وقف وســـط الغرفة غارقا فى الأفكار وخطرت له خواطر مظلمة ومؤلمة ، فتارة يتهم نفسه بالجنون وانه كان فى تلك اللحظة غير قادر على التفكير أو حماية نفسه وتارة يجد أن من الواجب عليه أن يعمل شيئا مخالفا لما يعمـــله .. وتمتم قائلا : رباه .. يجب أن أفر .. أفر ..(١٤) ..

ان حالة « رسكو لنكوف » قد عبرت عنها التعادلية « ان التعادلى الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاســـع عشر بين قوة العقل وقوة القلب .. أى بين نشاط التفكير

---

(١٢) الجريمة والعقاب : ص ٤٢٥ .
(١٣) التعادلية : ص ٣٦ .
(١٤) الجريمة والعقاب : ص ١٢٤ .

ونشـــاط الايمان ، قد اختـــل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصـــارات العلم العقلى ، واســـتمرار جحود الجانب الدينى(١٥) · »

ولذلك نرى « رسكولنكوف فى حالة ابتلاعية وقد فقد توازنه » وكان يشعر من وقت لآخر أنه يهذى ، وكان تحت وطأة الحمى وهياجها ، وكان يقول فى حرارة وغلظة : ما قيمة تلك العجوز ؟ ·· قد يكون قتل العجوز خطأ ولكن ليس للأمر اهمية ·· ان مسألة العجوز كانت مرضا ·· كنت متعجلا فأخطأت ، فانى لم أقتل انسانا وانما قتلت مبدا ·· قتلت المبدأ ، ولكنى لم اتخط الحاجز بل وقفت عنده ·· فلم اقدر الا على القتل(١٦) » ·

وهكذا يكشف لنا عن الضعف الذى انطوت عليه نفسه ولم يحاول البحث فى الوقت المناســـب عن مكامن القوة الايجابية فى نفسه ، او القوى المعوضـــة ليعالج الموقف بشكل آخر ·· وليس يكفى قوله كنت متعجلا فأخطأت » خصوصا والأمر يتعلق بالجريمة وأى جريمة ·

ولكن قل هل الخواء النفسى والاضطراب الذهنى ، الذى سيطر على نمط « رسكو لنكوف ولنتأمل معا » وابتسم ابتسامة مرة وهو يقول فى نفسه :كان يجب أن أعرف ذلك من نفسى ·· كيف اجترأت وأنا أعرف نفسى وأعرف ما ســـوف اكون عليه : كيف اجترأت على أن أتناول بلطة

---

(١٥) النعادلية ، ص ١٩ ·

(١٦) الجريمة والعقاب : ص ٤٢٥ ·

واسفك الدم ؟ ·· كان يجب أن أقدر ما سيحدث بل الواقع انى كنت أعلم(١٧) ·

انها المعرفة السلبية لأنها لم تعده الا للموقف السلبى من الخير والتوجه فى انقياد أعمى نحو الشر وكان هذه النفس لم تنطو على ذرة من الانسانية بل عشش فيها أبشع الشرور ··

● ··· أى مأساة حياتية تلك التى عاشها « أدريانا » انها حاولت « كما سمعت من قبل » ان تحقق تعادليتها أى التوازن مع واقع ابتلاعى بغيض ·· فلم تنجح الا أن تصل الى الحضيض ··

هكذا تقدم لنا رواية « امرأة من روما » لكاتبها الكبير البرتو مورافيا »(١٨) نماذج وأنماطا غير تعادلية لتصور عالم أدريانا البغيض ··

ونتعرف عليها منذ الصفحات الأولى تقول « وكأنى قارب من تلك القوارب القديمة المتداعية التى تسحب أحيانا الى المرسى فى خليج رخو زلق ، وقد امتلأ جوفها بمياه عفنة سوداء(١٩) ··

● فهل تأخذ خطوة ايجابية فى مواجهة هذا الواقع الردىء ·· ؟ ·· كلا ·· انه يبتعلها تماما وتصبح هى جزءا من هذا العالم ،وكبغى تسعى فى هذا المضمار ، تبحث عن ذاتها وتأقلمها معه وتستسلم فتكون من عوامل الابتلاع

---

(١٧) المرجع السابق : ص ٤٢٤ ·

(١٨) امرأة من روما صدرت عام ١٩٤٧ ·

(١٩) امرأة من روما ص ٣٤ ·

فى الحياة . . يكون لها شأن مع هذا العالم ، تتفاعل معه وتتمرد عليه احيانا ·· لكنها لا ترفضه » فكنت لا ادرى الا اننى فى ذلك اليوم على الأقل أفتقد الرغبة تماما فى الخروج لاقتناص عشيق ، ذلك الخاطر الذى لم يكن وليد عقلى فحسب بل جسدى بأكمله(٢٠) ·

ان تطور أحـــداث الرواية لم يكن يقدم بارقة امل ان تصبح « آدريانا » كما تحلم بحياة شريفة ، حتى عندما تفاتح أمها ، أن تعود لتعمـــل « موديل » للفنانين أو فى تصميم الملابس ، لا تجد لديها ما يشجعها لأنها كانت تمقت حياة العناء والشقاء . وكانت تود لـ آدريانا واقعا آخر تماما ·· « وأدركت انها أى امها التى تركت لها مطلق حريتها فى جسدها ، كانت تتنازعها عاطفتان متعارضتان : حبها لى وتعلقها بيسر الحياة · ولقد آسفت لها وكنت أفضل أن يكون لديها ما يجعلها تتنازل الى الأبد عن احـــدى هاتين العاطفتين أما الحب وأما المال(٢١) » · والحب له معنى اصـــطلاحى فى هذه الرواية او غالبية روايات « مورافيا » ·· الا وهو الجنس ·

ولذلك فقد تمرغت « آدريانا » مع أكثر من رجل حتى تجد عشيقا ·· وبالطبع فان ذلك الواقع الابتلاعى لم يكن ييسر لها الا أنماطا متشابهة فى الابتلاع ·· فلا غرو أن تقترب من النهاية الا ويجوس فى رأسها هذه الارهاصة

ولكننى عاودت التفكير فى البحر واستبد بى الحنين

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٣٥ ·

(٢١) المرجع السابق ص ٤٠ ، ٤١ ·

لا غرق نفسى فيه فقد خيل لى أن ذلك لن يستغرق سوى لحظة واحدة من الالم(٢٢) ٠

● ٠٠ « الحشائش تغنى فوق القبور الســاكنة » ت س ٠ اليوت ٠

وبعد الهلاك يظل شيء يقال « ويروى ٠٠ انه ســـر الأسرار ٠٠ عالم الخبايا والغموض ٠ ومن ثم تبرز قاعدة « قوة التفسير » ٠٠ فى منظور التعادلية ٠٠ ولذلك لم يكن غريبا أن تلجأ الكاتبة الانجليزية « دروريس ليسنج » الى توظيف مجزوء هذا البيت من الشعر ليكون عنوان روايتها الحشائش تغنى(٢٣) ، التى حققت لها المجد الأدبى العريض، فقد استطاعت دروريس بهذه الرواية أن تصبح علامة مميزة فى الأدب الانجليزى الحديث ، ومن أجل ما حققته من شهرة ترشح فى كل عام لنيل جائزة نوبل ٠

وهذه الرواية قد نشرت لمناصرة زنوج جنوب أفريقيا فى تضحيتهم ، وصراعهم من اجلها ضـــد تتارية البيض هناك ٠٠

واختارت امرأة بيضاء ٠٠ مجرد امرأة هى « مارى تيرنر » لم تجد رجلا يتزوجها ٠٠ فراحت تبحث عنه ٠٠ انه ريتشارد تيرنر » ٠٠صاحب مزرعة يستخدم الزنوج فى العمل ٠٠ وكان لفشله الدائم أسوأ حالا من الزنوج برغم تفكيره وسلوكه الانسانى معهم ٠٠

---

(٢٢) المرجع السابق ص ٢١٤ ٠

(٢٣) صـــدرت عـــام ١٩٤٩ م ٠

وماری امرأة انجليزية بكل المعانى الجامدة والقاسية فى حياتها اليومية ‥ خصوصا فى التعامل مع الخادم ، حتى حققت بقسوتها ورعونتها صفة اشـــهر امرأة تعامل الخدم بقسوة فى المنطقة على عكس ريتشارد ، وهذا ما كان يجعلها أكثر تشددا عليهم ‥ ثم عليه فى دخيلتها ‥

● فأين يكمن بعدما ينشط فى داخلنا من شعور لقوة التفسير فى هذه الرواية كابداع له هدف تفســيرى ‥ وسيلته قوة التعبير الذى نجحت ان تؤديه « دروريس ليسنج» وأن نضع يدنا على الأبعاد المتعلقة بأمر التعادلية فى هذه الرواية ؟ ‥

ولنسلط الضوء على شخصية « مارى » هذه عندما تعبر عن نفسها « هناك شىء محتمل عندها غير أنها تعلقت بالتفكير فيه « ريتشارد قبل الزواج، « على الرغم مما كانت موقنة من أنها مخلوقة فاشلة مضحكة لا يريدها أحد »(٢٤)

وحتى نتعرف اكثر على أسلوبها من الجانب الآخر ‥ أى مستر « تيرنر » نجده يخاطبها « ‥ هو كائن آدمى (يقصد) الخادم أليس كذلك ؟ ‥ ولابد أن يأكل مثلنا ‥ ثم لماذا يجب أن ينظف حوض الحمام مرة واحدة ، من الممكن تنظيفه على مدى أيام اذا كانت له عندك هذه الأهمية ؟ ٠ »

فقالت مارى :

ـ هذا بيتى ‥ وهذا خـــادمى ، لا خـــادمك ‥ لا تتدخل ٠(٢٥) ٠

---

(٢٤) الحشائش تغنى ص ٤٩ ٠

(٢٥) ارجع السابق ص ٧٧ ٠

وتتمادى فى مشـــاعرها العدوانية ضد الخدم ، الى أصدقاء زوجها من الجيران ·· بل الى زوجها نفسه : « ان مسلكها حيال « ديك » (اى زوجها) كان هو الاحتقار اساسا ولكن الاحتقار له كرجل ·· كرجل لم تحفل هى به . وقد تركته خارج دائرة حسابها من هذه الناحية تماما ·· اما كمزارع فكانت تحترمه ··(٢٦) ·

وبعدما كانت ترفض الانجاب ، بدأت تطمح الى طفل من اجل وحدتها ، ويرفض خوفا من الفقر وصارت تصارع وحدتها وقلقها وعزلتها ·· حتى عرفت نوعا جديدا من القلق بسبب « موسى » الخادم الزنجى الجديد ·· ذلك العملاق الذى ضربته مرة بالسوط أثناء عمله فى المزرعة منذ زمن هاهو فجأة خادمها داخل البيت الوحيدة بداخله حتى فى وجود « تيرنر » ··

واذا بالانجـــليزية القحة ،تتبدل فى كل شىء « انما تتصرف وكانها تعيش فى دنيا خاصة بها ، لا تحفل فيها بالمعايير الســـارية لدى غيرها من الناس ·· لكن ماهو الجنون ؟ ·· أليس هو الملاذ لمن ينسحبون من دنيا الناس حولهم ·· »

كانت هذه المسلمة الأخيرة ، هى التى جعلت موسى يقودها كما يشاء ، حتى شعرت انها لم تعد السيدة وصاحبة المبادرة. انه يوعز اليها بما تريد ،تحقق ايعازه بآلية شديدة وبخوف وبرعب الكوابيس والأحلام فى ليل غابة أفريقية ووحدة قاتلة فى النهار ·· حتى اصبحت كما تتصور انها

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٨٤ .

عارية امامه بل جعلته يسوى لها شعرها ويسدل عليها ازارها وهى تتجمل ‥ صار شيئا لصيقا بعالمها الغامض الملهم ‥ وتنهار وينهار الزوج بانهيار زراعته ومشاريعه باستمرار وعندما قررا فراق المكان والتخلص من كل شيء حتى « موسى » ‥ لم يكن هو يسمح ان تتخلص منه أو يتركها هى لتفعل ذلك ٠ وتشعر بانها مسوقة الى مصيرها المحتوم ان تقتل بيد هذا الزنجى العملاق ، وقد فعلها عندما طعنها فماتت فى صمت ‥ وغموض لكن بعد الدفن فان الحشائش حول القبر فى حركتها تعنى اشياء كثيرة ‥ فقد تلوح بالأسرار ‥ وقد تتغنى بما غض من أمور ‥ وامور فوق القبور الساكنة ‥

هذه الرواية مشحونة بالأسى ، وتعمل على شحن المشاعر بشكل مأساوى ضارى ٠

ان الأرض ترفض هؤلاء البيض ، تجحد ما يقدمونه من جهد الحرث والبذر ، لأنها اقامة ترتكز على الظلم فتبادلت البيئة مع هذه الأسرة من خلال مارى ، خاصة ، الكراهية الشديدة ‥ ذهنا عدم توائم ، وابتلاعية توزعت بين شخوص هذه الرواية ، فهى ترفض الخدم فتعذبهم فيفرون من ابتلاعيتها المقيتة حتى جاء من بينهم من يحمل ابتلاعية العشرات منهم بل المئات من الزنوج لهذا النمط الاستعمارى الأبيض باستغلاله وقسوته وصلفه ‥

وبدا مستر ومسز تيرنر ، وقد فقدا كل أسباب القوى المعوضة ، لمواجهة الضغوط المحيطة بهما ‥ حتى وصل بهما الأمر رويدا رويدا الى العجز عن الحركة الايجابية ، الأول بسبب المرض الذى يتصيده دائما ، وهى بسبب ما

سيطر عليها فى داخلها من أوهام وارهاصات وضغوط غامضة وحالة من الاضطراب العقلى ·· جعلها بعد السيدة الرادعة ·· الحمل الوديع المساق أمام خادمها الزنجى ··

لقدضاعت كل الأسباب التى يمكن أن تحقق التعادلية ، وأولها ايمان الانسان بنفسه وبغيره ، فالمقدمة الأولى للتعادلية « بغير الغير لا يوجد وجود » وان « الواحد الصحيح يساوى صفرا » ··

● من منا لم يقف باعجاب ازاء رائعة الكاتب الأمريكى « ارنست هيمنجواى » ·· الا وهى « العجوز والبحر » ؟(٢٧) · التى امتدح تقرير جائزة نوبل الكاتب لـ « تحكمه القوى فى الأسلوب القصصى الحديث » ·

واذا كنا فى البدايات من هذا الكتاب ، قد أفردنا الصفحات للتعادلية وارادة الانسان ·· أى الارادة بمفهومها الشامل تبعا للمنهج التعادلى ·· فان رواية « العجوز والبحر » بكل ما اشتملته من قمة ، جاءت ابرازا للارادة والاصرار والمعاناة ·· وليس فقط القضية الأزلية عند الصياد (الصبر) ، ولكن الأمر هنا أبعد من ذلك المعنى بكل ما يمكن من التصور والاقتدار على التعبير ، ولن يختلف فى هذا كل من قرأ هذه الرواية وعاشها بصدق المتشاعر القادرة على قوة التفسير بالمفهوم التعادلى ، الذى أبرزناه خلال هذه الدراسة ··

---

(٢٧) نشرت أول مرة سنة ١٩٥٢ م ظفرت بجائزة بوليتزر الأمريكية عام ١٩٥٢ وكانت مقدمة لفوز هيمنجواى بجائزة نوبل عام ١٩٥٤ م ·

فالقضية فى العجوز والبحر ·· هى مقدرة الانسان على اثبات ارادته أمام القوى ، التى تفوق هذه الارادة والعجوز هو دلالة اعجاز وادحاض للقاعدة البشرية بان الانسان ينتهى مع الشيخوخة · لقد انهارت هذه القاعدة فى تلك الرواية ، أن مكونات الشخصية لدى النمط الانسانى شملت كل ما تجمع لرجل البحر خلال السنين وكل الخبرات، ليرتكز فى موقفه المتحدى للطبيعة الخارقة خاصة فى قمة الفورة والاجتياح ·· لأن أيضا فى داخله احتشاد لا نهاية له من الايمان بالذات والايمان بالسـماء ·· « ان ارادة الانسان فى كفتها تعادلها الارادة الالهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادلها الايمان فى كفة(٢٨) ·

ويواصل العجوز تجربة التحدى ومقدرته على ابراز ارادته» وقال لنفسه :

ـ اشـتدا يا يداى ·· واقويا ياســاقاى ·· وافق يارأسي ·· احتمل ·· انك لمتفقد صوابك قط ·· وساظفر بها هذه المرة ·· وحينما حشد كل عزمه للجولة الأخيرة والسمكة العملاقة التى يفوق حجمها زورقه تقترب منه ، راح يشد الحبل بكل قواه ·· » وبعدما ينجح بالارادة ان يحطم اليأس ويتصيد السمكة ويسيطر عليها ، يبدأ معركته مع القرش الذى يحاول نهش الســمكة ·· وكادت تنقلب فرحته غما ، وهو واهنا امام تجمع سمك القرش على دم السمكة العملاقة ،يحاول التهامها جزءا فجزءا ·· » وجعل يفكر ·· ·

---

(٢٨) التعادلية ص ٤٠ · راجع معادلته وارادة الانسان من هـذا الكتاب ص ·

ـ انها لحماقة ان يستولى اليأس على المرء كما أن اليأس خطيئة فيما اعتقد · ولكنك لن تفكر فى الخطيئة » ·

لقد دخل فى معارك غير متكافئة مع أسراب سمك القرش وواصل حتى النهاية فى المقاومة ، وصدها وقتل ما استطاع منها انه لم ييأس من خوض المعركة ·· حقا قد نهش القرش سمكته العجيبة التى صارت ضحية ولم يبق غير هيكلها العظمى مربوطا الى جانب زورقه ·· لكنه واصل المعركة حتى النهاية ·· وبلغ شاطىء قريته ، ثم دخل كوخه ثم نام ·

ولنتامل معا آخر السطور فى تلك الرواية : « وبعد الظهيرة ، كان هناك رهط من السائحين فى الشرفة وكانت فى الرهط امرأة تتطلع الى الماء ، فرأت بين أكوام علب البيرة الخاوية والمخلفات المتراكمة عمودا شوكيا أبيض طويلا ينتهى بذيل ضخم ، ينتصب ويتماوج مع المد والجزر ، فى حين أن الريح الشرقية ترفع مياه البحر بانتظام خارج مدخل الميناء ··

» وسألت السائحة الساقى وهى تشير الى عظمة ظهر السمكة الضخمة التى كانت تتأهب للذهاب مع الجزر :

ـ ما هذا الشىء هناك ·

ـ أنه ذيل قرش ··

قال هذا وهو يحاول أن يشرح لها ما حدث ·

قالت :

– لم أكن أعرف أن للقرش ذيلا أنيقا جميلا الى هذا الحد .

وقال الرفيق لها :

ولا أنا أيضا .

وفى الكوخ كان العجوز لايزال نائما على وجهه والغلام قابع الى جواره ..

وكان العجوز يحلم بالسباع(٢٩) . انه مازال يحلم بخوض معارك جديدة » . انها الارادة التى اذا كانت طوع الانسان جعلته دائما آملا لا يعرف اليأس ..

وهنا عظمة التعادلية فى اطار ارادة الانسان ..

* * *

(٢٩) العجوز والحر ص ١٥٦ .

توفيــق الحــكيم

- الاسم الكامل : حسين توفيق اسماعيل الحكيم ·
- ولد فى ٩/١٠/١٨٩٨ بالاسكندرية محرم بك ·
- والدته هى السيدة / اسماء سليمان ·
- عمل والده وكيلا للنيابة بمركز السنطة · ثم تولى العمل بالقضاء ·
- جده لأبيه كان زميلا للامام محمد عبده ·
- حصل على شهادة الابتدائية من مدرســـــة دمنهور الابتدائية عام ١٩١٥ ـ ١٩١٦ م ·
- حصل على شهادة الباكالوريا من مدرسة محمد على الثانوية بالقاهرة عام ١٩٢١ ·
- الف عددا من الاناشيد الحماسية ابان ثورة ١٩١٩ ·

- نال درجه ليسانس الحقوق عام ١٩٢٤ ·
- سافر الى باريس للحصول على درجه الدكتوراه فى القانون عام ١٩٢٥ ·
- عاد من باريس الى مصر عام ١٩٢٨ دون الحصول على درجة الدكتوراه ·
- بدا فى دراســـته للأدب العـربى بمجرد عودته من باريس ·
- عين وكيلا للنيابة بمدينة طنطا عام ١٩٢٩ ·
- ترك العمل بالنيابة فى نهاية ١٩٣٤ ·
- عين مديرا للتحقيقات بوزارة المعارف العموميه عام ١٩٣٤ ·
- توفى والده عام ١٩٣٦ ودفن بالاسكندرية ·
- عين مديرا لدار الكتب المصرية عام ١٩٤٧ ·
- انتخب عضــوا بمجمع اللغة العربيه بالقاهرة عام ١٩٥٤ بعد وفاة عبد العزيز فهمى ·
- حصل على قلادة النيل من الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٨ ·
- احيل الى سن المعاش عام ١٩٥٨ وقت ان كان عضوا متفــرغا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وكيل وزارة ·

- حصل على وسام قلادة النيل عام ١٩٧٤ من الرئيس الراحل محمد أنور السادات ٠
- عين عضـــوا بمجلس تحرير مؤسسة الاهرام عام ١٩٦٠ ٠
- توفيت زوجته عام ١٩٧٦ ٠
- توفى ابنه الوحيد اسماعيل عام ١٩٧٧ بعد أن اشتهر كصاحب فرقة موسيقية ، وله ابنة واحدة اســـمها زينب ٠
- توفى مســـاء الاحـــد ٢٦ / ٧ /١٩٨٧ ٠ ودفن بالاسكندرية ٠

* * *

المراجـــع

- مؤلفات توفيق الحكيم .
- قصة الفلسفة اليونانية .

تصنيف : أحمد أمين . زكى نجيب محمود .

طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٣

- تعادلية الحكيم .

الدكتور زكى نجيب محمود . مجلة الهلال عدد فبراير فبراير ١٩٧٨ م .

- تعادلية توفيق الحكيم والبحث عن الانسان فى الكون والمجتمع .

الدكتور عاطف العراقى مجلة القاهرة عدد ٧٥ (١٥ سبتمبر ١٩٨٧) .

- غرام الأدباء . عباس خضـــر اقرأ (١٥٧) يناير ١٩٥٦ . دار المعارف ــ القاهرة ..

● الشخصية ·

تأليف : سدني · جورارد · ترجمة الدكتور حسن الفقي ، الدكتور سيد خير الله ·

● سيكولوجية الفرد في المجتمع ·

تأليف : كريتشى ـ كريتشى فيلد ـ بلانش · ترجمة الدكتور حسن الفقي ، الدكتور سيد خير الله ·

● يوسف السباعى فلسفة قلم وحياة ·

عماد الدين عيسى · الهيئة المصرية العامة للكتاب · المكتبة الثقافية عدد (١٤٢٣) ـ ١٩٨٧ م ·

● ســـاره ·

عباس محمود العقاد · كتاب الهلال ·

● الجريمة والعقاب ·

فيودور دستويفسكى · ترجمة حسن محمود مراجعة محمد فريد أبو حديد الناشر دار الكاتب العربى سلسلة الألف كتاب عدد (١٣٠) ·

● دعاء الكروان ·

د · طه حسين · دار المعارف · مصر ·

- آلام فرتر .

جان فولجانج جوته ترجمة أحمد حسن الزيات .. المقدمة : د . طه حسين . ط ٦ . الناشر لجنة التاليف والترجمة والنشر .

- رد قلبى .

يوسف السباعى الناشر : الخانجى . القاهرة .

- البؤساء .

فيكتور هيجو . تعريب حافظ ابراهيم . الناشر دار الهلال ١٩٧١ م .

- سلوى فى مهب الريح .

محمود تيمور ..

- العجوز والبحر .

آرنست هيمنجواى . تعريب صالح جودت روايات الهلال القاهرة يوليو ١٩٧٤ م .

- اللص والكلاب .

نجيب محفوظ . ط ٧ . صدرت عام ١٩٧٦ . الناشر مكتبة مصر .

- هارب من الايام .

ثروت أباظة . كتاب اليوم .

- قنديل أم هاشم .

يحيى حقى ـ الناشر دار المعارف ـ اقرأ (١٨) ط ٣ .

- امرأة من روما .

البرتو موراقيا . ترجمة زغلول فهمى . روايات الهلال الناشر دار الهلال . عدد سبتمبر ١٩٧١ م .

- بيت من لحم .

يوسف ادريس . مكتبة غريب . القاهرة .

- زينب .

الدكتور محمد حسين هيكل . دار الهلال .

- اعترافات توفيق الحكيم .

مجلة اكتوبر العدد ٥٦٢ ـ ٢ اغسطس ١٩٨٧ م .

- توفيق الحكيم .

لمعى المطيعى . جريدة الوفد ـ ٣٠ يوليو ١٩٨٧ م .

- عبقرية توفيق الحكيم .

رأفت الخياط . جريدة الجمهورية ـ ١٩ يوليو ١٩٨٧.

- الحشائش تغنى .

دوريس ليسنج . ترجمة محمود مسعود . روايات الهلال عدد اكتوبر ١٩٨٧ م .

- دون كيشوت .

سرفانتس . الناشر دار المعارف مصر .

صدر للمؤلف

* « الخروج من الكهف » رواية ·
* « الدقيقة الثلاثون ·· فى الألف الثالث بعد الميلاد » مجموعة قصص ·
* « قصص من المنصورة » مع آخرين · مجموعة قصص ·
* « ايقاع وبشر » مع محمود تيمور ، نجيب محفوظ ، ثروت أباظة ومجمد جبريل · والحمامصى وآخرين · مجموعة قصص ·
* « المارد وشجرة التوت » · مجموعة قصص ·
* « الثأر » مع آخرين · مجموعة قصص ·
* « يوسف السباعى ·· فلسفة حلم وحياة » · دارسة ادبية ·
* « التعادلية فى ادب توفيق الحكيم » · دراسة أدبية ·

تحت الطبع

* « جبل النار والزيتون » · مجموعة قصص
* بئر فى صدر رجل » · مجموعة قصص ·
* أسطورة الصمت » · مجموعة قصص ·
* « ويخترعون الأنبياء » · دراسة فكرية استقاها المؤلف خلال جولته فى أسبانيا وسويسرا ·
* « بوابة الشمس » · ادب رحلات ·· يشمل جولته فى دول : المانيا الغربية ــ فرنسا ــ سويسرا ــ اسبانيا ــ اليونان ــ المغرب ·

المؤلف :

□ عماد الدين عيسى □

- عضو مؤسس لاتحاد كتاب مصر
- عضو « نادى القصة » بالقاهرة ·
- عمل محررا أدبيا ومستطلعا صحفيا بمجلة الكويت (وزارة الاعلام) ·
- عمل نائب رئيس تحرير مجلة المنصورة ·
- حصل على الجائز الأولى للقصة القصيرة عن وزارة الثقافة عام ١٩٧١ ·
- نشرت قصصه وكتاباته فى الصحف والمجلات العربية·
- قام بالاعداد الدرامى للقصة فى اذاعة ج·م·ع·
- اذيعت قصصه ونوقشت أعماله الأدبية فى الاذاعة المصرية · البرنامج العام ، البرنامج الثانى ، الشرق الأوسط ، اذاعة الشعب ، صوت العرب ، كما قدم أحاديثا أدبية فيها ·
- نشرت أولى مجموعاته القصصية : « فى موكب الخطايا » عام ١٩٦٣ ·
- نشرت قصصه ومقالاته وتحقيقاته الصحفية (العربية والدولية) فى الصحف التالية : روزاليوسف ، الأهرام ، الجمهورية ، القبس ، الوطنى ، الأنباء ،

الشروق ، الفيصل ، الخفجي ، القصة ، الهلال ، الثقافة ، الزهور ، الكاتب ، القــاهرة ، الثقافة الأسبوعية ، الكويت ، المنصورة ، الانماء العربى ، العمل ، المساء · البيان · أسرتى ، المتحف العربى ، « الرأى الأدبى » الشباب العربى ·

- قام بجولة صحفية فى كل من : ألمانيا الغربية ـ فرنسا ـ سويسرا ـ أسبانيا ـ اليونان ـ المغرب ·

* * *

الفهـرس

رقم الصفحة

● الباب الثانى ●

● الباب الثالث ●

● الباب الرابع ●

رقم الايداع ١٩٩٠/٢٢٧١

الترقيم الدولى ٩ ـ ٢٣٩١ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المؤلف فى هذه الدراسة يؤكد التعادليه و يقيمها من خلال أدب توفيق الحكيم كما تتناول الدراسة المنطلقات الرئيسية والمعالم الفكريه للتعادلية وارهاصاتها فى ابداع الحكيم ويرصد تفسيرها لتاريخ الانسانية من منطلق حرية الانسان وتحقيق ارادته ومفهوم الالتزام .

كما تتعرض الدراسة لظاهرة « الابتلاعية » وسبل مقاومتها كذلك يقيم المؤلف حوارا حول تعادلية الحكيم مع د . زكى نجيب محمود ، د . عاطف العراقى ، د . لويس عوض وغيرهم .

الكتاب القادم :

التخطيط السياحى

أعداد : مصطفى زيتون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب